مواقف في ثبات المرأة

وصور من جهاد المرأة الفلسطينية

يوسف إسماعيل



قطر الندى

مواقف في ثبات المرأة

وصور من جهاد المرأة الفلسطينية

إعداد
يوسف إسماعيل سليمان





الطبعة الأولى

٢٠٠٦م — ١٤٢٧هـ

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٧٩٨٤

الترقيم الدولي: ٩٧٧-٦-١٣٧-١٣٠-X

قطر الندى للنشر والتوزيع

ص.ب ١٥٤ الأورمان جيزة

الرمز البريدي ١٢٦١٢

ت/ ٠١٠١٦٩٢٧٦٠

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخير الداعين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الكرام، وعلى من دعا بدعوته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

وبعد..

فقد قضت إرادة الله أن تكون الدنيا دار اختبار للعباد، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وهذا الأمر عام يتناول حياة البشر جميعًا، وهذا ما يجعلنا لا نعجب إذا رأينا الحياة الإنسانية منذ نشأتها سلسلة متعاقبة من المسرات والأحزان، ومن الأفراح والأتراح، فهي لا تستقر على وتيرة واحدة، ولا تدوم على نسق واحد على حد قول الشاعر:

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سره زمن ساءته أزمان

فالإنسان معرض دائمًا لأن يبتلى في نفسه أو ماله أو أحبابه أو

غير ذلك، ولكن المؤمن إذا لم ينظر النظرة الصحيحة لهذا الابتلاء فسوف يكون عرضة للزلل والفشل، بينما إذا أدرك أن الحياة اختبار كبير فسيكون عليه- إذا كان كيِّسًا فطنًا- أن يكرس جهوده للنجاح فيه إن كان يريد سعادة الدنيا والآخرة.

وما دامت الحياة اختبارًا فمن الطبيعي أن تعرض لنا فيها مواقف واختيارات، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]. فإذا ما اختار الإنسان منا طريقًا أو هدفًا يبقى عليه بعد ذلك أن يتحمل عواقب اختياره، ومسئولية قراره، خاصة إذا كان مقتنعًا بنبل هدفه، وسلامه مقصده.

وبعض الناس يختار لنفسه أن يعيش لرسالة نبيلة، أو مبدأ سامٍ، وقد يعلو ويسمو فيجعل من هذا الاختيار رسالته في الحياة، التي يحيا بها ليبلغ بها الغاية التي رسمها لنفسه، أو يموت في سبيلها، ولكنَّا نعلم أن الرسالة كلما غلت قيمتها، أو زادت خطورتها، كانت متطلباتها في حاملها أكثر.

ومن ثم اختلفت أنصبة الناس في هذه الحياة من الجهد والمشقة، بقدر ما اختلفت اختياراتهم وما يتصفون به من قدرة على التحمل والثبات، ولذا لما سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ..» [١].

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ذلك لأن الأنبياء وأتباعهم ممن يسيرون على نهجهم يضطلعون برسالات عظيمة، أكبر من أن يطيقها التافهين والمهازيل، وإنما تحتاج حينئذ إلى من يؤمنون بها ويصرون عليها بما يحملونه في قلـوبهم مـن عقيدة راسخة، وحماسة وافرة، ومن وطّنـوا أنفسـهم علـى مواجهـة المخاطر، واحتمال الشدائد في سبيلها.

وقد زخرت دعوة التوحيد والإيمان بنماذج نسائية رائعة مبهـرة تتضاءل هامات الجبال أمام هامتها، وتطاول علياء السماء في رفعتهـا وعزتها، من تلك النساء اللاتـي ثـبتن علـى الإيمـان، ودافعـن عنـه، وأسهمن في نشره.

أقدم بعضًا من هذه النماذج في الصفحات التالية لتكـون بمثابـة نماذج مثلى في التضحية والفداء، والبذل والعطاء، والثبات والإبـاء، لكل أخواتي المؤمنات، دعوة لاحتـذائها، وتثبيتًـا لهـن علـى طريـق الهداية والرشاد، وتعزية وتسـلية عمـا يلقـين مـن عنـت ورهـق، أو جحود وإنكار، أو جراح وآلام في هـذا الطريـق؛ طريـق الله. سـائلاً المولى عز وجل أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

ماشطة تحسد الجبال ثباتها

كان إيمان هذه المرأة وثباتها على إيمانها مع عظم ما لاقته من أروع الأمثلة على أثر الإيمان حين يغمر القلب ويمازج الروح، فلا يرى صاحبه لنفسه بدونه معنًى أو قلبًا أو روحًا، كانت تلك المرأة الصالحة تعيش هي وزوجها في ظل مُلْكِ فرعون.. زوجها مقرب من فرعون.. وهي خادمة ومربية لبنات فرعون..

فمنَّ الله عليهما بالإيمان.. فلم يلبث زوجها أن علم فرعون بإيمانه فقتله..فصبرت واحتسبته عند الله..

ثم لم تزل الزوجة تعمل في بيت فرعون تمشط بنات فرعون.. وتنفق على أولادها الخمسة.. تطعمهم كما تطعم الطير أفراخها.. فبينما هي تمشط ابنة فرعون يومًا.. إذ وقع المشط من يدها.

فقالت: بسم الله.. فقالت ابنة فرعون: الله.. أبي؟

فصاحت الماشطة بابنة فرعون: كلا.. بل الله... ربي.. وربك.. ورب أبيك.

فتعجبت البنت أن يُعبد غير أبيها.

ثم أخبرت أباها بذلك.. فعجب أن يوجد في قصره من يعبد غيره.

فدعا بها.. وقال لها: من ربك؟ قالت: ربي وربك الله.

فأمرها بالرجوع عن دينها.. وحبسها.. وضربها.. فلم ترجع عن دينها.. فأمر فرعون بقدْرٍ من نحاس فملئت بالزيت.. ثم أحمي عليها حتى غلت القدر بالزيت.

وأوقفها أمام القدر.. فلما رأت العذاب.. أيقنت إنما هي نفس واحدة تخرج وتلقى الله تعالى.. فعلم فرعون أن أحب الناس إليها أولادها الخمسة.. الأيتام الذين تكدح لهم.. وتطعمهم.. فأراد أن يزيد في عذابها فأحضر أطفالها الخمسة.. تدور أعينهم ولا يدرون إلى أين يساقون..

فلما رأوا أمهم تعلقوا بها يبكون.. فانكبت عليهم تقبلهم وتشمهم وتبكي.. وأخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها.. وألقمته ثديها..

فلما رأى فرعون هذا المنظر.. أمر بأكبرهم فجرَّه الجنود ودفعوه إلى الزيت المغلي.. والغلام يصيح بأمه ويستغيث.. ويسترحم الجنود.. ويتوسل إلى فرعون.. ويحاول الفكاك والهرب..

وينادي إخوته الصغار.. ويضرب الجنود بيديه الصغيرتين..

وهم يصفعونه ويدفعونه.. وأمه تنظر إليه.. وتودّعه.

فما هي إلا لحظات حتى أُلقي به في الزيت.. والأم تنظر وتبكي.. وإخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة.. حتى إذا ذاب لحمه من على جسمه النحيل.. وطفت عظامه بيضاء فوق الزيت.. نظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بالله.. فأبت عليه ذلك.. فغضب فرعون وأمر بولدها الثاني.. فسُحب من أمه وهو يبكي ويستغيث.. فما هي إلا لحظات حتى ألقي به في الزيت وهي تنظر إليه.. حتى طفت عظامه بيضاء واختلطت بعظام أخيه.. والأم ثابتة على دينها موقنة بلقاء ربها.

ثم أمر فرعون بالولد الثالث فسُحب وقُرب إلى القدر المغلي.. ثم حمل وغيِّب في الزيت.. فعل به ما فعل بأخويه.. والأم ثابتة على دينها، فأمر فرعون أن يطرح الرابع في الزيت.. فأقبل الجنود إليه وكان صغيرًا قد تعلق بثوب أمه.. فلما جذبه الجنود بكى.. وانطرح على قدمي أمه ودموعه تجري على رجليها وهي تحاول أن تحمله مع أخيه على صدرها.. وتحاول أن تودعه وتقبله وتشمه قبل أن يفارقها.. فحالوا بينه وبينها.. وحملوه من يديه الصغيرتين.. وهو يبكي ويستغيث.. ويتوسل بكلمات غير مفهومة.. وهم لا يرحمونه..

وما هي إلا لحظات حتى غرق في الزيت المغلي.. وغاب

الجسد.. وانقطع الصوت.. وشمت الأم رائحة اللحم.. وعلت عظامه الصغيرة بيضاء فوق الزيت يفور بها.. تنظر الأم إلى عظامه وقد رحل عنها إلى دار أخرى.. وهي تبكي وتتقطع لفراقه..

هذا الذي طالما ضمته إلى صدرها.. وأرضعته من ثديها.. طالما سهرت لسهره.. وبكت لبكائه..

كم ليلة بات في حجرها.. ولعب بشعرها.. كم قربت منه ألعابه.. وألبسته ثيابه..

فجاهدت نفسها أن تتجلد وتتماسك.. فالتفتوا إليها وتدافعوا عليها.. وانتزعوا الخامس الرضيع من بين يديها وكان قد التقم ثديها.. فلما انتُزع منها.. صرخ الصغير.. وبكت المسكينة.. فلما رأى الله تعالى ذلها وانكسارها وفجيعتها بولدها.. أنطق الله الصبي في مهده فقال لها: يا أماه، اصبري فإنك على الحق. ثم انقطع صوته عنها وغُيِّب في القدر مع إخوته.. ألقي في الزيت وفي فمه بقايا من حليبها.. وفي يده شعرة من شعرها.. وعلى أثوابه بقية من دمعها..

ذهب الأولاد الخمسة.. وها هي عظامهم تطفو على القدر.. ولحمهم يفور به الزيت.. تنظر المسكينة إلى هذه العظام الصغيرة.

عظام من؟ إنهم أولادها.. الذين طالما ملئوا عليها البيت

ضحكًا وسرورًا.. إنهم فلذات كبدها.. وعصارة قلبها الذين لما فارقوها كأن قلبها أخرج من صدرها..

طالما ركضوا إليها.. وارتموا بين يديها.. وضمتهم إلى صدرها.. وألبستهم ثيابهم بيدها.. ومسحت دموعهم بأصابعها.. ثم ها هم يُنتزعون من بين يديها.. ويُقتلون أمام ناظريها..

وتركوها وحيدة وتولوا عنها.. وعن قريب ستكون معهم..

كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين هذا العذاب بكلمة كفر تُسمعها لفرعون.. لكنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى..

ثم لما لم يبق إلا هي.. أقبلوا إليها كالكلاب الضارية.. ودفعوها إلى القدر..

فلما حملوها ليقذفوها في الزيت.. نظرت إلى عظام أولادها.. فتذكرت اجتماعهم معها في الحياة.. فالتفتت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة.. فصاح بها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: أن تجمع بين عظامي وعظام أولادي فتدفنها في قبر واحد. ثم أغمضت عينيها..

وألقيت في القدر.. واحترق جسدها.. وطفت عظامها..

فلله در هذه الماشطة ما أعظم ثباتها.. وأكثر ثوابها..

ولقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء شيئًا من نعيمها.. فحدَّث به

أصحابه وقال لهم: «لَمَّا كَانَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فقال: هذه رائحةُ ماشطةِ ابنةِ فرعونَ وأولادها...» [1].

وهكذا عاشت هذه المرأة تحمل رسالة التوحيد في حياتها ما وسعها الجهد، ولم تتنازل عنها حتى لقيت بها الله راضية مطمئنة، وتركت من ورائها رسالة.. تُرى من يحملها؟!

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد في مسنده.

امرأة فرعون.. تعلن إيمانها

وما أسرع ما التقط الرسالة قلب عامر بالإيمان، إنه قلب آسية.. لقد أعطت لنا آسية امرأة فرعون نموذجًا فريدًا في الجرأة على إعلان الحق، والاستمساك به، والثبات عليه، متحملة تبعات هذا الاختيار في بسالة منقطعة النظير.

قد كانت ملكة على عرشها.. على أسِرَّة ممهدة، وفرش منضدة.. بين خدم يخدمون.. وأهل يُكرِّمون.. لكنها كانت مؤمنة تكتم إيمانها..

كانت في نعيم مقيم.. فلما رأت قوافل الشهداء تتسابق إلى السماء اشتاقت إلى مجاورة ربها وكرهت مجاورة فرعون.

فلما قتل فرعون الماشطة المؤمنة...دخل على زوجته آسية يستعرض أمامها قواه..

فصاحت به آسية: الويل لك! ما أجرأك على الله.. ثم أعلنت إيمانها بالله..

فغضب فرعون.. وأقسم لتذوقن الموت.. أو لتكفرن بالله.

ثم أمر فرعون بها فمُدت بين يديه على لوحٍ.. ورُبطت يداها وقدماها في أوتاد من حديد.. وأمر بضربها فضربت.. حتى بدأت الدماء تسيل من جسدها.. واللحم ينسلخ عن عظامها..

فلما اشتد عليها العذاب وعاينت الموت رفعت بصرها إلى السماء وقالت كما حكى القرآن على لسانها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم:١١]. وارتفعت دعوتها إلى السماء..

ذكر ابن كثير في تفسيره: «فأبصرت بيتها في الجنة». فتبسمت ثم ماتت. نعم.. ماتت الملكة التي كانت في طِيب وبخور.. وفرح وسرور.. نعم تركت فساتينها.. وعطورها.. وخدمها.. وصديقاتها.

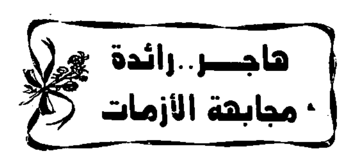
واختارت الموت.. لكنها اليوم.. تتقلب في النعيم كيفما شاءت.

ولماذا لا يكون جزاؤها كذلك.. وهي طالما:

وقفتْ تناجي ربها	والليل مسدول البراقع
تصغي لنجواها السما	ء وقد جرت منها المدامع
تدعو فتحتشد الملا	ئك والدجى هيمان
والعابدات الزاهدا	ت جفت مراقدها المضاجع
وتخر للرحمن سا	جدة مطهرة النوازع

نفعها صبرها على الطاعات.. مقاومتها للشهوات.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

* * *



هاجر.. رائدة مجابهة الأزمات

وقد يعرض للمرء أثناء تأديته لرسالته من المفاجآت المذهلة ما يعجز العقل لبعض الوقت عن إمكان التعامل معها، وإذا لم يكن لدينا حينئذ ما نعتمد عليه من ثقة بالحق الذي نتمسك به، وثبات عليه يحمينا من الانحراف عنه، أو الانجراف بعيدًا عنه، وقدرة على التكيف مع مختلف الظروف والأحوال، فربما تخبطنا وتعثرنا في أنفسنا، وتملكنا اليأس والندم.

ولقد أعطتنا السيدة هاجر نموذجًا رائعًا للتعامل مع الطوارئ والمفاجآت، حين تركها سيدنا إبراهيم في الصحراء تلبية لأمر جاءه من الله، وكان واديًا غير ذي زرع، هناك في تلك البرية المقفرة المجدبة ترك نبي الله زوجته هاجر وابنه إسماعيل وانصرف..

حينها نظرت هاجر حولها في ذهول، ثم نادته وهي تقول له:كيف تتركنا في هذه ا لبرية المجدبة.. لا ماء.. لا زرع.. لا إنسان.. وحوش البرية ستفترسنا.. وحر الشمس سيكوينا.. فارأف بنا أيها الرجل.

وظل إبراهيم يبتعد صامتًا لا يجيب..روى البخاري في

صحيحه عن ابن عباس قال: فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذِي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آللَّهُ الذِي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذن لا يضيعنا. ثم رجعتْ وظلت هاجر وحيدة مع ابنها في تلك الصحراء القاحلة، ونفد ما كان معهما من الزاد، وراح إسماعيل يبكي طلبًا للماء.. ومن أين الماء في مثل هذه البقعة؟

واستمر إسماعيل يبكي، ويتحول بكاؤه إلى أنين يوجع قلب أمه ويمزقه ألمًا وشفقة.. وهاجر في لهفة تنظر بعينين ملؤهما الدموع مرة على رضيعها المسكين، ومرة على أرجاء المكان تمسحه بعينيها استكشافًا؛ لعل بارقة أمل تظهر فتلوذ بها وتتصبر عما هي فيه، لكن نظراتها ما أسعفتها بشيء، وإنما ارتد إليها طرفها كليلاً حسيرًا.

وظل الوقت يمر ثقيلاً قاسيًا وخفَتَ أنين إسماعيل، وبدا كأن قدرته على البكاء بدأت تخور وتضعف من شدة العطش، وأحست هاجر أن الموت لابد زائرهم بين لحظة وأخرى إن لم يتداركهما الله برحمته وتَخِفّ العناية الإلهية لنجدتهما وإنقاذهما.

هاجر تبحث عن أمل:

راحت هاجر تفكر كيف تتصرف، وماذا يمكن أن تفعل في مثل

هذا المكان الموحش؟ كانت تفكر وهي ترى وجه إسماعيل الجميل بدأ يمتقع.. وملامحه توحي بقسوة ما يعانيه.. وهنا قررت أن تفعل أي شيء خلاف السكون والانتظار، فوضعت إسماعيل على الأرض بهدوء.. وأسرعت بقوة إلى مرتفع قريب يسمى الصفا تطل منه على ما حولها.. ربما ترى شيئًا يعطيها الأمل.. علّها ترى قافلة، أو إنسانًا، أو أي شيء ينقذها وطفلها.. ولكنها لم تجد أحدًا.. فلم تيئس من الفرج فنزلت عائدة؛ لتلقي نظرة على رضيعها لتطمئن أنه ما زال حيًّا، ثم أسرعت إلى المرتفع المقابل ويسمى المروة، ففعلت مثلما فعلت على الصفا، وظلت تهرول بين الصفا والمروة سبع مرات دامعة العين حزينة الفؤاد، لا تكل ولا تمل من السعي، ومن دعاء ربها أن يفرّج عنهما ويكتب لهما النجاة.

يقول ابن عباس: «وجعلت تَنْظُرُ إليه يتلَوَّى، فانطَلَقَت كراهيةَ أَنْ تنظُرَ إليه، فوجدت الصَّفَا أقربَ جبلٍ في الأرض يلِيها، فقامتْ عليه ثم استقْبلَت الوادِي تنظُرُ هل تَرَى أحدًا فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلَغَت الوادي رفعَتْ طرَف درعها، ثم سعَت سعْيَ الإنسان المجهود، حتى جاوَزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، فعلَتْ ذلك سبع مرات»[1]

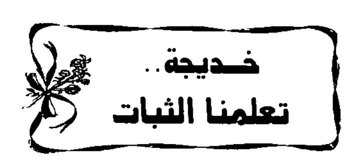
(١) رواه البخاري في صحيحه.

بارقة الأمل..عند إسماعيل:

وفي المرة السابعة استجاب الله لدعائها.. فحين نزلت لتطمئن على رضيعها.. فوجئت بالمياه تتدفق صافية رقراقة تحت قدميه.. فألقت بنفسها على الماء ورشت به وجه الصغير.. ثم حملته وسقته حتى ارتوى ورأت نسمات العافية تلوح على محياه.. فاطمأنت وفرحت.. وانطلقت كلمات الشكر الخالص تصعد من قلبها إلى ربها الذي رحمها وصغيرها.. وأنقذهما من حيث لم تحتسب.

إن هاجر لم تشأ أن تكون عقبة في طريق سعي إبراهيم عليه السلام لتلبية أمر ربه، وإنما أمدت نفسها بالثقة في ربها.. الرزاق.. العليم.. الكفيل..وهكذا سار إبراهيم عليه السلام مطمئنًا أنه ترك زوجه تحسن تقدير الأمور، واثقًا بربه أنه لن يخذله فيهما أبدًا..

فأعطت لنا السيدة هاجر بموقفها المشرف مع زوجها وابنها ملحمة رائعة في القدرة على التكيف مع الظروف الصعبة المفاجئة، وأثبتت أن الاستعداد النفسي بعدة اليقين لأي متغير وطارئ، واستقصاء الجهد منا أولاً- كفيلان باستجلاب العون، خاصة إذا كانا في ذات الله، وأنهما من عوامل الثبات في مواجهة الأزمات، وصار تصرفها رضي الله عنها درسًا مفيدًا لأجيال المسلمين من بعدها وبركة عليهم.



خديجة.. تعلمنا الثبات

وكما حدث لهاجر من مفاجأة قاسية حدث لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، مع اختلاف في الظروف والأحوال، غير أنها هي أيضًا مثلت نموذجًا رائعًا لا في الثبات على الحق فقط، بل وفي تثبيت ومؤازرة غيرها أيضًا، فلنقف عليه.

إنها أم المؤمنين خديجة التي أعطت من نفسها درسًا بليغًا لنساء المؤمنات في وقوف المرأة إلى جوار زوجها في المواقف الصعبة والأزمات الخطيرة بالتثبيت والتأييد والمؤازرة.. فتروي لنا أم المؤمنين عائشة قائلة: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم.. وكان يخلو بغار حراء.. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، جاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قال: «فأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي» فقال: اقرأ. قلت: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ».. فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ [العلق:١] فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى».فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لَقَدْ خَشِيتُ

عَلَى نَفْسِي». فقالت خديجة: كلا. والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل.. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ:

«أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. (١)

ثبات يصنعه حسن المعرفة:

ففي هذا الموقف يتبين لنا كيف كانت خديجة رضي الله عنها امرأة حكيمة موفورة الثقة ثابتة الجنان في أحلك اللحظات، زوجها يعود إليها مرتعش الأطراف، مضطرب الوجدان، لا يتمالك نفسه من الخوف والرعب لشيء رآه هاله وأفزعه، فما يكون منها إلا أن توفر له أولاً ما طلبه من غطاء لتدفئته، ثم تحيطه بالأمان وتشعره بالطمأنينة، ولم تفعل ما تفعله الكثيرات في مثل هذه المواقف من صراخ وعويل أو إعلان بالمصيبة إلى أهلها وجيرانها ليدركوها ويمنحوها الأمان، وإنما بعد أن تأكدت من سريان بعض السكينة والراحة إلى نفسه، سألته أن يقصّ عليها ما حدث، فلما علمت قالت بلهجة اليقين: كلا. والله لا يخزيك أبدًا، إنك.. وإنك.. ما أحلى وما أجمل أن يستمع الزوج من زوجته في

(١) رواه البخاري في صحيحه.

المواقف الصعبة كلمات التأييد والتثبيت والتبشير، وهى كلمات لم تنطلق من فراغ، لأنها رأت من علاقتها به وسابق معرفتها به كرمه الظاهر، ونبله الفائق، وطيب شمائله، ومحاسن أخلاقه، فتحدثت بفطرتها النقية الصافية التي ألهمتها أن الجزاء من جنس العمل، ولم يخامرها الشك ولو للحظة! ألم تعاشره وتدرك بنفسها صدق ما اشتهر به بين قومه جميعًا من صدق وأمانة وبر.

ثبات برغم معرفة العواقب:

ومع ذلك بذلت جهدها، وسعت وسعها أن تضاعف اطمئنانه، فأخذته إلى ابن عمها الذي كان صاحب علم وحكمة، فأكد صدق ما ذهبت إليه خديجة بفطرتها، وزادهم على ذلك البشارة بالنبوة، غير أنه حذرهما من عداوة الناس، وما يمكن أن يتعرض له النبي من إيذاء عظيم وبلاء كبير، ومع هذا عادت معه السيدة خديجة؛ لتكون أول من يؤمن به، ويشد أزره، ويقوي عضده كلما ألمّ به من قومه أذى أو نالوه بسوء، وبقيت مدة حياتها معه الملجأ الآمن، والظل الوارف الذي يفيء إليه، والحضن الدافئ الذي يبثه الحنان والثقة حتى لاقت ربها.

من مكافات الثبات:

فلله درها من امرأة وزوجة استحقت عن جدارة غير مسبوقة أن تنال التكريم في الدنيا والآخرة فيقول عنها النبي ﷺ حين قالت

له السيدة عائشة رضي الله عنها لما غارت من كثرة ما يذكرها النبي ﷺ ويثني عليها ويكرم معارفها: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله خيرًا منها. فرد عليها النبي ﷺ قائلاً: «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[١].إنه الوفاء لأحق وأجدر الناس به.

وهذا رب العزة ﷻ يبعث جبريل إلى النبي ﷺ قبل موتها ليبشرها ببيت عظيم في ا لجنة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة.. اقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».[٢]

رضي الله عنها كانت أول من آمن، وأول من آزر، وأول من ثبت، وأول من شارك في الدعوة، وأول من بُشّر بالجنة.

وهذه الصورة المضيئة سنجد على دربها كثيرات، تعلمن منها كيفية الثبات في المحن والملمات بأقدام راسخة، وقلوب شجاعة.

* * *

(١) رواه أحمد في مسنده.

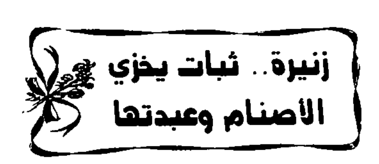
(٢) رواه البخاري في صحيحه.

جارية بني المؤمل
أغلى من روحي..

وهذه امرأة أخرى يروي لنا قصة ثباتها البلاذري في السيرة الشامية فيقول: إن جارية ضعيفة من بني المؤمل اسمها لبيبة، أسلمت قبل إسلام عمر ابن الخطاب، وكان عمر يعذبها حتى يملّ، فيدعها ثم يقول: إني لم أدعك إلا سآمة. فتقول: كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم.

ويقول حسان بن ثابت- قبل إسلامه- واصفًا ما رآه من تعذيبها: قدمتُ مكة معتمراً والنبي ﷺ وأصحابه يؤذَون ويُعذّبون، فوقفت على عمر وهو يخنق جارية حتى تسترخي في يديه، فأقول: قد ماتت. فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

حقًّا إن الإسلام لم يصل إلينا بسهولة ولا ببساطة، لقد تحمل هؤلاء الرواد والرائدات الأوائل من العذاب ما لو لم يسجله التاريخ لما تخيلناه، فضلاً عن أن نظن أن هناك من يصبر ويصمد ويحتمل مثله، ولكنها امرأة باعت نفسها لله، فنجّاها الله بفضله، بعد أن أثبت الابتلاء والتمحيص صدق إيمانها، وعظم ثباتها في ذاته سبحانه، فسخر الله أبا بكر لإنقاذها، وزادها على ذلك أن أعتقها من الرق، وما عند الله خير وأبقى.



أما زنيرة الرومية فكانت امرأة بسيطة اختارت الإسلام.. وأرادت أن تعيش في نوره وتحت ظلاله.. لا يكاد أحد يشعر بها.. لكن حزب الشيطان كشف أمرها.. فكان أبو جهل وعمر-قبل إسلامه- يعذبانها، واستمرّا في تعذيبها حتى عميت.. وفقدت نور عينيها، فثبتت وأصرت على إيمانها.. فضلت العمى على النطق بالشرك.. وآثرت نور الإيمان على كل شيء، فكان لها من بصيرتها الثاقبة ما عوضها عن بصرها الذاهب.

ولما أراد أبو جهل أن يسخر منها.. ويتملص من جريمته النكراء التي صنعها بها قال لها: إن اللات والعزى هما اللتان فعلتا بك ما ترين.

فقالت بثبات المؤمنة: وما تدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يرد بصري.

فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد. فاشتراها أبو بكر وأعتقها.

لله ما أعظم ثباتها ويقينها، اختارت الطريق فتحملت التبعة..

كانت المصيبة كبيرة، لكن إيمانها كان أكبر..

فقدت البصر ولم تفقد البصيرة على بساطة شأنها، الذي أعلته ورفعته وخلدته بما صنعت.

***

سمية..تذل
أبا جهل بثباتها

وكثيرًا ما يصبو أعداء الحق أن يذلوه على الأقل إن لم يستطيعوا جره إلى ميدانهم ليصرعوه.. وقد أراد أبو جهل دومًا أن يشبع هذه الرغبة في نفسه.. لكن الله سبحانه أبى إلا أن يذله ويخزيه دائمًا.. وكلما تصور أنه قد نجح واقترب من تحقيق أمنيته، فوجئ بالذل قد أحاطه وجلّله على مرأى ومسمع من قومه، فمرة أمام حمزة حين تجرأ فسب النبي ﷺ، فشجه حمزة أمام سادات قريش وفتيانها ونسائها.. ومرة أمام زنيرة الرومية.. ومرة أخرى هنا أمام الصحابية الجليلة سمية بنت خياط، التي قيدها ونكل بها.. وأذاقها من العذاب ألوانًا لا تتحملها الجبال.. من بين قيد ثقيل وغليظ.. إلى جلد بالسياط اللاهبة.. إلى ضرب لا يعرف الملل ولا الهوادة.. تحت أشعة مكة المحرقة؛ لترجع عن دينها، وتأبى سمية أن تتزحزح عن الحق الذي امتزج بروحها.. والنور الذي خالط قلبها.. ولما بلغ بهذا العتل الأثيم في تعذيبها منتهاه، ورآها صامتة قد تلاشت قدرتها على النطق حتى بالأنين.. ظن أنه يستطيع أن يربح معها جولة طالما فشل أن يربحها مع مَن سواها من المؤمنين والمؤمنات، فطلب منها أن

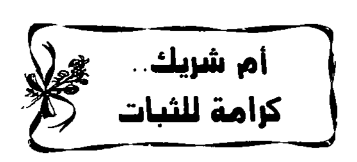
تسب إله محمد.. ثم محمدًا.. وتتبرأ منهما..

فما كان من سمية إلا أن استجمعت كل ما تبقى في كيانها من قوة.. وبصقت في وجهه أمام قومه وعبيده.. ثم سبته وشتمته.. وأعلنت براءتها من الشرك وأهله.. فما كان منه في فورة غضبه، وثورة غيظه، إلا أن عاجلها بطعنة رمح قوية، ليقضي على القوة التي أخزته وأذلته.. لتلقى ربها سعيدة بما سبق وبشرها به النبي ﷺ كلما رآها صابرة على العذاب: «صبرًا آلَ يَاسِر؛ فإنَّ مَوعِدَكُم الجَنَّةُ»(١).

نعم لقد ارتاحت وظفرت بالوعد، وسطر التاريخ لها موقفها المشرف كما سجل لجلاديها الخزي والعار إلى قيام الساعة، ولعذاب الآخرة لهم أشد وأخزى.

* * *

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية»، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» وغيرهما.



وها هي امرأة أخرى تختار طريق الإيمان، وتسعى لتحمل رسالته فتتعرض لأنواع الإيذاء فتصمد صمود الأبطال، حتى كان من جزاء ثباتها وصبرها أن من أولياء الله أصحاب الكرامات.

يقول ابن عباس ﷺ: وقع في قلب أم شريك الإسلام فأسلمت وهي بمكة، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًّا فتدعوهن وترغبهن في الإسلام، حتى ظهر أمرها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا.. لكنا نسيّرك إليهم. قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء، ثم تركوني ثلاثًا لا يطعموني ولا يسقوني، وكانوا إذا نزلوا منزلاً أوثقوني في الشمس واستظلوا هم منها، وحبسوني عن الطعام والشراب، فبينما هم قد نزلوا منزلاً وأوثقوني في الشمس إذا أنا ببرد شيء على صدري، فتناولته، فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً ثم نزع مني فرفع، ثم عاد، فتناولته فشربت منه ثم رفع، ثم عاد، فتناولته ثم رفع مرارًا، ثم تُركت فشربت حتى رويت، ثم أفضت سائره على جسدي وثيابي، فلما استيقظوا وإذا هم بأثر الماء، ورأوني حسنة الهيئة فقالوا لي: انحللت

فأخذتِ سقاءنا فشربت منه؟ قلت: لا والله، ولكنه كان من الأمر كذا وكذا.

قالوا: لئن كنت صادقة لدينك خير من ديننا. فلما نظروا إلى أسقيتهم وجدوها كما تركوها؛ فأسلموا عند ذلك.

لقد علمت أم شريك أن اختيارها لطريق الإيمان محفوف بالأخطار، ولكنها لم تتوان عن حمل الرسالة التي وصلتها، فراحت تنشرها بين بنات جنسها، مع علمها أن ذلك سيضاعف من الأخطار التي يمكن أن تحلّ بها، ولكنها ثبتت ووطنت نفسها على احتمال أي شيء

وقد ابتليت كما رأينا بالفعل..حين علمت قريش أمرها.. فعذبوها بالقيود، وبالشمس المحرقة مع التجويع والإيذاء، فلم تخضع لهم ولم تلن، بل إنها حتى لم تجزع وتصرخ وتولول.. لم تسترحم ولم تستعطف منهم أحدًا.. لم تبك حظها ولم تتحسر على زمن الراحة والأمن..

فكان الفرج من الله الذي لا يتخلى عن عباده الصادقين، فأرسل إليها بما يكون معينًا على الثبات، ويعطيها الأمل في اقتراب الفرج والتيسير.. فأمدها بما يزيل ألمها، ويروي ظمأها، وينشرح له صدرها.. وزادها على ذلك أن فتح قلوب معذبيها للإيمان، فصار إيمانهم بفضل ثباتها وصدق إيمانها في ميزان حسناتها إلى يوم القيامة.

* * *

فاطمة بنت الخطاب .. ثبات متفرد

ما أسرع ما تغلغل الإيمان في قلبها، وعمر بيتها، فإذا هي أشد شغفًا بتلقي آيات القرآن، وأعظم لهفة إلى معرفة أخبار رسول الله ﷺ الذي أرسله الله لينقذها وينقذ الناس بأنوار الوحي من ظلمات الجهل والهوى.

إنها فاطمة بنت الخطاب، أسلمت -قبل أخيها عمر- هي وزوجها سعيد بن زيد، واستخُفوا بإسلامهم فقد كانا من السابقين إلى دخول الإسلام.

وكان خباب بن الأرَتِّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب وزوجها يقرئهما -يعلمهما- القرآن، لأنه سابق إلى مدرسة الرسول ﷺ. وكان خباب ﷺ من العبيد المعذبين في سبيل الله سبحانه.

فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه الذين ظلوا معه ولم يهاجروا إلى الحبشة؛ حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى، وقد علم عمر أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، فلقيه نعيم بن عبد الله -وكان قد أسلم وأخفى إسلامه- فقال له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟

قال: ختنك[١] وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما.[٢]

قال: فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[٣] التي سمعت؟

(١) ختن الرجل هو المتزوج بابنته أو أخته.

(٢) قال الأستاذ عبد السلام هارون محقق تهذيب سيرة ابن هشام تعليقا على تصرف نعيم مع عمر: إنما أراد بذلك صرفه عن رسول الله ﷺ خشية عليه، وإيذاء فاطمة وزوجها أهون من ذلك أمرا. انظر: تهذيب السيرة ص ٧٨.

(٣) الهينمة: صوت كلام لا يفهم.

قالا له: ما سمعت شيئًا.

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها -ويا لها من شجاعة عظيمة وهي التي تعلم قوة عمر التي يهابها أقوى الرجال في قريش ويعملون لها ألف حساب، فكيف بعمر الثائر الغاضب؟!- فضربها عمر فشجّها[1]، فلما فعل ذلك قالت له أخته دون خوف أو تردد: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

وكان لشجاعتها وثباتها في مواجهته وهو الذي لم يعتد منها على هذه اللهجة القوية من قبلُ زلزلة ومفاجأة جعلته يعيد حساباته خاصة وقد استعمل البطش فلم يجدِ نفعًا، بل أتى بنتائج عكسية.

رأى عمر ما بأخته من الدم فندم على ما صنع وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا[2].

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي. وحلف لها بآلهته ليُردنَّها -إذا قرأها- إليها، فلما

(١) شجها: شق رأسها.

(٢) أي عارفا بالكتابة.

قال ذلك ازدادت ثقة وصلابة، ولكنها طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها: (طه). فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!
فقال عمر: فدلوني على محمد حتى آتيه[1]. وذهب إلى رسول الله ﷺ وانضم إلى الكتيبة المؤمنة.

فكيف نشكرك أيتها الصحابية على ما أسديت للإسلام من خدمة جليلة بموقفك العظيم الذي كان سببًا في إسلام الفاروق وهو الذي لم يكن يجرؤ على دعوته إلى الإسلام في ذلك الوقت أحد؟ ووالله إننا لنغبطك، وحقّ لنا ذلك وإسلام عمر يأتي في ميزانك يوم القيامة إن شاء الله، فقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»**[2]. فهنيئًا لك هنيئًا.

* * *

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام، بتحقيق عبد السلام هارون،ص ٧٨،٧٩. بتصرف.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

أسماء بنت أبي بكر .. فداء وثبات

يا لها من صحابية متميزة، ذات شجاعة نادرة، إنها استطاعت أن تحفر اسمها ولقبها بأحرف من نور لا في جبين الزمان فحسب، وإنما في قلوب وعقول المؤمنين ما دام هناك إيمان ومؤمنون.

إذ كيف ننسى أو ينسى التاريخ والمؤمنون تلك الصورة التي رسمتها أسماء في الأذهان لفتاة مسلمة تقطع المسافة الطويلة بين مكة وجبل ثور في جوف الليل تحمل الطعام والماء وأخبار القوم المترصدين،لم يثنها عن مهمتها وحشة الطريق، ووعورة المسلك، وترصد الأعداء؛ لأنها كانت تعلم أن في استنقاذ رسول الله ﷺ وصاحبه -وهو أبو بكر أبوها- وإنجاح مقصدهما ووصولهما إلى دار الهجرة نصرة لدين الله، وإعلاء لكلمته، ومن هنا كانت تقوم بمهمتها الصعبة هذه كل يوم ماشية متخفية حذرة مترقبة، فتصعد قمة الجبل حتى توافي رسول الله ﷺ وصاحبه بما تحمل من زاد وأخبار، ثم تعود أدراجها إلى مكة تحت رداء الليل الأسود البهيم[1]

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي، بتصرف.

نعم لن ننسى هذه الصحابية الجليلة التي انطبعت صورتها في أفئدة المؤمنين وهي تشق نطاقها نصفين لتحمل إلى النبي وصاحبه ما يحتاجان إليه أثناء إقامتهما بالغار، ثم بشرى النبي لها بنطاقين في الجنة.

عن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: صنعت سفرة رسول الله في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد إلا نطاقي. قال: فشقيه باثنين فاربطيه؛ بواحد السقاء، وبالآخر السفرة. ففعلتُ، فلذلك سميت ذات النطاقين[1].

فأي خدمة أسدتها إلينا هذه الناشئة المسلمة؟ وأي جهاد قامت به لاستنقاذ حياة النبي ﷺ وصاحبه في أحلك الظروف التي واجهته، وأحلك الظروف التي مرت بها دعوته الغراء؟

ولكن .. أهذه هي الصورة الوحيدة في حياة البطلة أسماء؟ تلك التي تربت على مبادئ الإسلام والإيمان من معدنها الصافي، ومصدرها العذب، من رسول الله ﷺ أحب الناس إلى أبيها، ومن كان أبوها أحب الناس إليه.

(١) رواه البخاري في صحيحه.

فرعون الأمة يجر أذيال الخيبة:

لم تكن المهمة السابقة التي يعجز عنها أشداء الرجال هي كل ما أدته أسماء نحو دينها ونصرة رسوله، بل تعرضت لمحنة قاسية، ثبتت فيها ثبات الجبال الراسيات، يوم أحاط بها رجال من المشركين[1] يتقدمهم فرعون ذلك الزمان وطاغية قريش أبو جهل، وهو مَن هو اشتهارًا بجبروته وقسوته، وتعذيبه للمؤمنين، يسألها بفظاظته المعهودة، وغطرسته المدعومة بحشد مادي ومعنوي من سائر كفار قريش، عن أبيها وعن رسول الله، أين هما؟ فأنكرت أمرهما - كانت تعلم أنهم يريدون قتل النبي ﷺ- وقالت: لا أدري. فأمعنوا في الشدة عليها، فلم تتلجلج، ولم تخف، ولم تضطرب .. لم تضعف أو تتهاون متخاذلة أمام إرهابهم وكثرتهم .. بل وقفت كالصخرة العنيدة، التي لا تزيدها أمواج شراستهم إلا سخرية واحتقارًا لمحاولاتهم النَّيل منها، أو حتى مجرد التأثير عليها، حتى انفجر أبو جهل بالغيظ ولم يتمالك أن لطمها لطمة أطارت -لفرط شدتها- قرْطها من أذنها؛ ظنًّا منه أن يوهن من عزيمتها، أو يفت في عضدها، فترضخ لمطلبه، وتجيبه عن تساؤله، فلما رأى مضاء عزمها، وقوة تصميمها على الإنكار، ولّى ظهره منكسرًا مخذولاً مذمومًا، بعد أن

(١) شخصية المرأة المسلمة، ص ٦٩.

كشفت له أسماء مقدار عجزه وتفاهته ودناءته أمام من يحيطون به، كما كشفت لنفسها ولقومها من قريش عن القدرة والعظمة والاستعلاء التي يمنحها الإيمان لمعتنقيه على مناوئيه ومعانديه من أهل الكفر والضلال.

ثبات وتثبيت:

ولم يكن هذان الموقفان وهاتان الصورتان هما كل رصيدها الزاخر بالبطولات، وإنما كانا ضمن ألبوم كبير يضم الكثير والكثير من مواقف البطولة والعزة.

فقد بقيت هذه الشامخة الأبية تستعلي بإيمانها، وبثقتها بالحق الذي تقف في ميدانه إلى أخريات عمرها برغم ضعف جسمها، ورقة عظامها، وذهاب بصرها .. فها هي في موقف من أصعب المواقف التي يمكن أن تواجهها امرأة، فضلاً عن أن تحتملها وتتجلد لها، فإن المرء يمكن أن يتحمل ألمًا أو مصيبة تحل به، ولكن إذا كانت هذه المصيبة فيمن هو أغلى عليه من نفسه، وأحب إليه من روحه، خاصة إذا كان يملك الخيار أن يمنع عنه خطرًا محققًا عاجلاً، فإن قلة من الناس هم من يمكن أن يثبتوا في مواجهة هذه المواقف، ولقد كانت أسماء واحدة من هؤلاء، بل إنها لم تكتف بالثبات والصبر حتى أضافت إلى ذلك من عمق إيمانها، ووعيها بواجباتها تجاه دينها وربها، ما يرقى بها إلى مصاف عظماء المربين والقادة الربانيين، وهو

ما سنراه في موقف لها في مواجهة ظالم عاتٍ، وفي تثبيت ولدها عبد الله بن الزبير في مواجهتهم:

لما أحاط الحجاج ومعه جند الشام بعبد الله بن الزبير في الكعبة بيت الله الحرام وتفرق الناس عن عبد الله دخل على أمه قائلاً: يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك ومن قُتل معك، وإن قلت: كنت على الحق فلما وهن أصحابي ضعفت. فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا! القتل أحسن.

فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يُمثّلوا بي ويصلبوني. قالت: يا بني، إن الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبّل رأسها وقال: هذا رأيي والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، وما أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرماته، ولكني أحببت أن أعلم

رأيك، فقد زدتني بصيرة، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هـذا، فلا يشتدنَّ حزنك، وسلمي الأمر إلى الله.

فقالت له أمه: إنـي لأرجـو أن يكـون عزائـي فيـك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخـرج حتـى أنظـر إلامَ يصير أمرك.

فقال: جزاك الله خيرًا، فلا تَدَعي الدعاء لي.

قالت: لا أدعه أبدًا، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل، وذاك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينـة، وبـره بأبيه وبي، اللهم قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضـيت، فـأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين !!

تقهر الحجاج بصلابتها :

ثم أقبل عبد الله على القتال حتى قُتل رحمه الله، فصلبه الحجاج على جذع فوق الثنية، ثم أرسل الحجـاج إلى أمـه أسمـاء، فأبـت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول ليقول لها: لتأتينّي، أو لأبعـثنّ إليـكِ مـن يسحبك من قرونك. فأبت وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إليّ من يسحبني من قروني.

فقال الحجاج: أروني مكانهـا، ثـم انطلـق حتـى وقـف عليهـا، فقال: كيف رأيتِ نصر الله الحق وأظهره.

فقالت: ربما أديل الباطل[1] على الحق وأهله، وإنك بين فرثها والجية[2].

فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] وقد أذاقه الله العذاب الأليم.

قالت: كذبت، كان أول مولود في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ، وحنكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجّت المدينة فرحًا به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرحه يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بوالديه، صوامًا قوامًا بكتاب الله، معظمًا لحرمة الله، يبغض من يعصي الله ﷻ، أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول: «يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»[3]. فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه. فقام عنها الحجاج ولم يرجع، ثم أنزل ابنها عبد الله، فأتى به أسماء، فغسلته وطيبته وحنطته ثم دفنته رضي الله عنهما. ويأتيها عبد الله بن عمر معزيًا ومواسيًا يقول لها: إن هذه الجثث ليست بشيء وإنما

---

(١) أي كانت له الدولة والغلبة.

(٢) الجية: مستنقع الماء. تريد إهانته وتوبيخه، فغلبة الباطل للحق- أحيانا- سابقة على وجوده، وقد تكرر ذلك مع من هم أفضل من ابنها.

(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير ٨/ ٣٣٠-٣٤١..

الأرواح عند الله فاتقي الله واصبري. فتقول بإيمان صلب ونفس مطمئنة: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل؟!

وجاء في رواية أخرى في مسند الحميدي:

عن أبي المحياة، عن أمه أنها قالت: لما قتل الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير، دخل الحجاج على أسماء بنت أبي بكر فقال لها: يا أماه، إن أمير المؤمنين أوصاني بك، فهل لك من حاجة؟ قالت: مالي من حاجة، ولست لك بأم، ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، ولكن انتظر أحدثك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ[1]». فأما الكذاب فقد رأيناه -تعني المختار بن عبيد الثقفي- وأما المبير فأنت.

فخرج من عندها منكسرًا ذليلاً يتمنى لو لم يكن لقيها، بعد أن دخل عليها مزهوًا يريد أن يتشفى.

هذه أسماء العجوز، وهذا الحجاج الجبار في أوج انتصاره وعنفوان طغيانه، إيمانها يسمو بها ويعزها فلا تراه أمامها إلا شيئًا صغيرًا لا تخشاه، وقبح فعله وغروره يهبط به ويذله فيراها أعظم من أن ينال منها بشيء.

(١) أي مهلك يسرف في إهلاك الناس.

نسيبة .. امرأة تثبت لمّا فرّ الرجال

هذه صورة مضيئة لامرأة قلما تجود الأيام بنظيرتها، إنها أم عمارة نسيبة بنت كعب، التي كانت من السابقات إلى الإسلام من أهل المدينة، اللاتي بايعن النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية.

منذ ذلك اليوم انخرطت أم عمارة في بوتقة الإسلام، ولم يعد لها شغل إلا دعوته، ولا همّ إلا انتصاره بكل ما تملكه وتستطيعه.

وقد سنحت لها الفرصة للتعبير عن بعض ما يعتلج في صدرها من حماسة، وما تكنه للإسلام من حب يوم أحد.. فبعد هزيمة قريش في بدر، جاءت قريش بأبطالها وفرسانها وعدتها وعتادها.. مشحونة بالحقد والكراهية للمسلمين.. تريد الثأر ليوم بدر، فلما خرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه عند جبل أحد وقد أعدوا خطتهم المحكمة، وبدأ القتال.. كانت الجولة الأولى للمسلمين بعد أن توالى سقوط فرسان المشركين، وفرار الكثير منهم.. ولاحت تباشير النصر، فاشتد ضغط المسلمين على المشركين حتى فرّ أكثرهم من الميدان، وهنا حدثت كارثة.. حيث بدأ رماة جيش المسلمين الذين أمرهم الرسول ﷺ بحماية ظهور المسلمين ينزلون من فوق جبل أحد،

عاصيين ومخالفين بذلك لأمر الرسول ﷺ، الذي شدد عليهم ألا ينزلوا من فوق الجبل مهما حدث، ولكنهم لما رأوا الدائرة على المشركين، وفرارهم من ميدان المعركة أقبل الرماة يريدون جمع الغنائم والأسلاب، وهنا التفت خالد بن الوليد قائد خيالة المشركين يومئذ إلى ما حدث، وانتبه لتلك الثغرة، فعاد إلى الميدان مع من بقي معه من المشركين، وأعملوا سيوفهم في الرماة، وأعاد بذلك إلى المشركين توازنهم وتماسكهم، فارتدوا إلى الميدان، بينما وقع الاضطراب في صفوف المسلمين، وتساقط شهداؤهم، وفر الكثير منهم عن الميدان بعد هذه المفاجأة المذهلة، حتى إن النبي ﷺ أصيب في وجهه الشريف وجرح.

وهنا تجلى دور أم عمارة التي كانت قد خرجت مع الجيش؛ لتسقي العطشى، وتداوي الجرحى، فلما رأت ما حاق بالمسلمين برزت إلي قلب المعركة وساحة المعمعة؛ لتدافع عن النبي ﷺ بكل ما أوتيت من قوة وشجاعة وثبات، وتروي لنا ذلك فتقول:«فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال دونه وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليّ».

وقد أشاد الرسول ﷺ بموقفها وثباتها في هذا اليوم العصيب فقال ﷺ:«**مَا الْتَفَتُّ يَمِينًا وَلا شمَالاً إِلَّا ورَأَيْتُهَا تُقَاتِلُ دُونِي**»[1]...

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، بيروت: مكتبة صادر ، ج٨، ص٤١٥.

وكان ضمرة بن سعيد المازني، يحدث عن جدته- وكانت قد شهدت أحدًا- قالت: سمعت ﷺ يقول: «لَمَقَامُ نَسِيبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ اليَومَ خَيرٌ مِنْ مَقَامِ فُلانٍ وَفُلانٍ». وكانت-أي جدة نسيبة- تراها يومئذ تقاتل أشد القتال وإنها لحاجزة ثوبها علي وسطها حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها، فداوته سنة، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ إلى غزوة حمراء الأسد، فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم[١] رضي الله عنها ورحمها.

وجاء في بعض الروايات:خرجت نسيبه وزوجها وابناها حبيب وعبد الله يوم أحد ورآهم النبي ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ عَلَيكُمْ أَهْـلَ بَيـتٍ». فقالت له نسيبة: ادع الله أن نرافقك في الجنة»[٢].

فقال ﷺ:«اللهُمَّ اجْعَلْهُمْ رُفَقَائِي فِي الجَنَّة». فكانت نسيبة بعد ذلك تقول: ما أُبالي ما أصابني من أمر الدنيا بعدُ[٣].

حقًا إنها امرأة عظيمة، أثبتت قدرة المرأة على العطاء والثبات والتضحية في أشد الأزمات، فهنيئًا لها دعوة النبي ﷺ جزاء ما أسلفت وقدمت، ولقاء ما ضحت وبذلت، وكفاء ما أعطت المثل والقدوة.

(١) المصدر السابق، ج٨، ص٤١٣-٤١٥.
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٨، ص ٤١٥.
(٣) المصدر السابق، ج٨، ص ٤١٥.

صفية بنت عبد المطلب .. الصبر مركبي

لقد كانت نصرة دين الحق، والالتحاق بركب دعوته ديدن المرأة المسلمة في صدر الإسلام، إذ كان الإسلام يعمر قلوب المسلمات غضًا طريًا دفاقًا، يتحول إلى إرادة وحركة، أو صبر وثبات، بحسب ما تتطلبه المرحلة وتمليه الضرورة.

ومن النساء اللاتي اجتمع لهن حسن الفهم وقوة العزم وثبات الجنان عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب.

فها نحن نراها في غزوة أحد تخرج إلى أرض المعركة بعد أن بلغها نبأ هزيمة المسلمين واستشهاد حمزة، فتستقبل المسلمين وفي يدها رمح تضرب في وجوه الناس وتقول: انهزمتم عن رسول الله ﷺ! فلما رآها رسول الله ﷺ أشار إلى ولدها الزبير بن العوام أن يرجعها كيلا ترى ما حل بشقيقها حمزة ﷺ بعد أن بُقرت بطنه، وأُخرجت كبده، ومُثّل به، وتكون صفية قد اقتربت من الجمع، ويشفق الرسول ﷺ على عمته، فيسرع الزبير بقطع طريقها ويقول لها: يا أماه، إن رسول الله ﷺ يسألك أن ترجعي، فارجعي يا أماه.

وتتسمر صفية الشامخة بإسلامها، في موقعها، وتلاطف ابنها في

غير شدة: ولِم أرجع يا بني؟ وقد بلغني أن قد مُثل بأخي، وذلك في الله، وما أرضانا بما يصيبنا في الله، يا بني والله لأحتسبن، ولأصبرن إن شاء الله، فأروني حمزة أنظره قبل أن يواريه التراب.

ويرق قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لعمته، فيخلي بينها وبين أخيها، فذرفت دمعة، ثم ما زادت أن قالت بشموخ وعزة مثلما قالت لابنها الزبير من قبل: لأحتسبن ولأصبرن، إن شاء الله، فما أرضانا بما يصيبنا في سبيل الله، وذلك في الله عز وجل قليل(١)

هكذا بمنتهى السكينة والهدوء والتسليم والرضا!!

أفبعد المصيبة في أسد الله حمزة بن عبد المطلب مصيبة تصابها صفية ..؟

إنها لمصيبة أثقل على قلب صفية من الجبال الرواسي، فأي امرأة كانت هذه، وأي إيمان كان يحمله صدرها؟

لقد كانت صفية رضي الله عنها في هذا الموقف في جهاد مع نفسها عظيم، ربما يفوق الجهاد الذي يلقاه الرجال في ساحات المعارك، ولا يدل ذلك إلا على أن الغاية واضحة في كلا الجهادين، ألا وهي التماس طاعة الله ورضاه في كل حال.

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٧/ ٧٤٤.

شجاعة وثبات في مواجهة الخطر:

وكأن صفية كانت ترى نفسها أكبر من موقف تصبر فيه على ضراء، فإذا بنا نراها في موقف آخر، ومشهد أكثر روعة من سابقه، وذلك حين شهدت غزوة الخندق، وكان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوه من المدينة رفع أزواجه ونساءه في حصن حسان بن ثابت - وكان أحصن الأماكن في المدينة- فمر رجل يهودي وجعل يطيف بالحصن، فقالت: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل علينا مَن وراءنا من يهود، وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فلابد من أحد ينزل إليه ليقتله.

هكذا بمنتهى الإيجابية في التعامل مع الخطر تفكر في خطورة موقف النساء، وخطورة موقف الرسول ﷺ ، وتقترح الحل لهذا الخطر الوشيك، لا بالاختباء ولا بالصراخ، بل بالمواجهة الجريئة الشجاعة.

فلما لم تجد من يعينها على درء هذا الخطر، قامت فأخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، ثم رجعت إلى الحصن[1].

وفي رواية أخرى أنها طلبت ممن معها في الحصن ربط السيف

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٧/ ٧٤٤.

على ذراعها، ثم تقدمت إلي اليهودي حتى قتلته وقطعت رأسه، ثم أخذت الرأس فرمت به على اليهود، فقالت اليهود: قد علمنا أن محمدًا لم يكن يترك أهله خلوفًا ليس معهم أحد. فتفرقوا وذهبوا. [1]

هكذا بمنتهى الشجاعة والثبات في مواجهة الخطر الداهم، لم يمنعها الحياء أن تدفع شرًّا عن نساء المؤمنين٢، وقد رأت في نفسها قدرة علي ذلك، وهكذا تعطى لنا درسًا في التقدم والمبادرة لحمل المسئولية وتكاليفها إن لم يطق الآخرون حملها، وعدم الاكتفاء بالاقتراحات والكلام ما دمنا نقدر علي إنجاز المهام.



(١) رواه البزار في مسنده، وذكره الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٢.

أم سليم.. ثبات في أتون المحن

ومع هذه الصحابية الجليلة أم سليم زوج أبي طلحة نتعلم كيف نثبت أمام الفواجع والنوازل العصيبة ، ويتبدى لنا فيه كيف تستطيع المرأة المسلمة أن توازن في شخصيتها بين واجباتها، فتفيض بالحب والحنان للزوج، وبالرعاية والحفظ لصغارها، وبالطاعة والتسليم لأمر ربها، وبالقوة والحماسة لدعوتها..

ففي ذات يوم يمرض ولدها الصغير حبيب روحها وقرة عين أبيه وأمه، ويطول المرض قليلاً ويعتصر الألم قلب والديه، ويكاد يطير لبهما جزعًا وإشفاقًا عليه لولا ما يعتصمان به من الصبر والرجاء في قرب شفائه.

ويخرج الأب كعادته في الصباح إلى عمله حزينًا على حال ولده المريض، وتجلس أم سليم بجوار ولدها تمرضه وتداويه بعيون قد أرقها السهر إلى جواره متلهفة إلى رؤية العافية تسري في بدنه، والحيوية والنضارة على قسمات وجهه، وبقلب ملؤه الحب والحنان، ولسان لا يمل ولا يكل من الدعاء له بالشفاء والعافية، ولكن تشاء إرادة الله أن يتوفى هذا الولد، وأن يُمتحن به والداه، فما كان من

هذه المؤمنة التقية إلا أن حمدت واسترجعت وصبرت، لقد سمعت وتعلمت من قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْصَّبْرُ عِنْدَ الْصَّدْمَةِ الْأُوْلَى»[١].

فلم يزعجها المصاب عن احترام أمر ربها باستقبال قضائه بالتسليم، ولم يدفعها الجزع إلى شق الجيوب ولطم الخدود، كعادة النساء في مثل هذه الأحوال، بل إنها تجاوزت هذا المرحلة من الجزع ثم الصبر إلى التفكير في: كيفية التخفيف والتهوين عن زوجها الذي سيعود من عمله مجهدًا متعبًا بعد عمل يوم طويل وقد علم أهل الدار بأمر ميتها، فأرسلت إليهم ألا يخبره أحد بخبر ولده حتى تخبره هي، فهي أعلم بحاله.

ثم إنها غسَّلت الولد، وكفنته وحنطته- الحنوط نوع من الطيب- وسجَّت عليه ثوبًا وجعلته على فراشه، فلما جاء أبو طلحة وسأل عن الولد قالت: هو أسكن ما كان.

فظن أنه عوفي، فقام أبو طلحة فأكل، ثم تقول الرواية في صحيح مسلم: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ له أحسنَ ما كان تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلك- أي تزينت أفضل زينة- فوَقَعَ بها، فلمَّا رَاتْ أنَّه قد شبِعَ وأصاب منها قالت: يا أبا طلْحَة، أرَأَيتَ لو أن قومًا أعارُوا عارِيَتَهم أهل بيتٍ، فطلبوا عارِيَتَهم ألهم أن يمنَعُوهم؟قال: لا. قالت: فاحْتَسِب ابنَك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

فخرج أبو طلحة غاضبًا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بادي الحزن، فأخبره بما كان فقال ﷺ: «بَارَكَ اللهُ لَكُمَا في لَيلَتِكُمَا»[1].

هكذا لاقت هذه المرأة مصابها الأليم بحكمة ورفعة، ضبطت مشاعرها، ملكت أعصابها، أدخلت السرور على زوجها، قامت بحق ولدها وزوجها، تقبلت قضاء الله وقدره برحابة صدر واحتساب أجر، فنالت بركة دعاء النبي ﷺ لها ولزوجها بالبركة، التي كان من ثمرتها أن تحمل أم سليم في مولود جديد يحظى بنصيب من دعوة النبي ﷺ لأبويه؛ حتى روي أن ابنهما هذا رُزق أولادًا قرأ القرآن منهم عشرة (أي حفظوه).

ولو فعلت ما تفعله نساؤنا اليوم ما كانت تزيد على أن تملأ البيت حزنًا وغمًّا، ثم لا يتغير المقدور، بل كانت ستخسر جزاء الصبر الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فنعم المرأة كانت، ونعم الصبر صبرها

أم سليم.. المجاهدة الفذة:

وفي مشهد آخر لها، نلمح المسلمين يتأهبون للسير مع الرسول ﷺ لفتح مكة، وفيهم أبو طلحة زوج أم سليم، وكانت أم سليم حاملاً في شهورها الأخيرة، ولكن حملها لم يمنعها من الرغبة

(١) رواه مسلم في صحيحه.

والتصميم علي مرافقة زوجها أبي طلحة لتغنم معه شرف الجهاد في سبيل الله غير عابئة بوعثاء السفر، ولأواء الطريق، وصعوبة المركب، وأشفق عليها زوجها من هذا كله ولم ير بدًا من استئذان الرسول ﷺ، فأذن، وقرت أم سليم عينًا بمرافقة زوجها الحبيب وشهدت معه نصر الله والفتح، ورأت معاقل الوثنية والشرك في جزيرة العرب تسقط إلي غير رجعة.

أفعمت هذه المشاهد نفس أم سليم بالإيمان، وزادتها إقدامًا ورغبة في الجهاد، ولم تمض إلا أيام معدودات حتى كان يوم حنين الذي زلزل فيه المسلمون زلزالاً شديدًا، وانشمروا مدبرين لا يلوون على شيء، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: **«أين أيها الناس؟ هلموا إلي»**.

ولم يثبت مع رسول الله ﷺ سوي نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وكانت أم سليم من هذا النفر مع زوجها أبي طلحة، وقد رآها رسول الله ﷺ حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة وقد خشيت أن يوقعها الجمل، فأدنت رأسه منها وأدخلت يدها في خزامته[1] ليثبت ولا يلحق بالجمال الفارة.. ويناديها

(١) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

رسول الله ﷺ: «أم سليم». وتجيب: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله[١].

وفي صحيح مسلم: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا فكان معها، فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا الْخَنْجَرُ؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقتُلْ من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك[٢]؟ فقال رسول الله ﷺ : «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ».

لقد ثبتت أم سليم مع رسول الله ﷺ وقت الشدة والكرب والضيق إذ حمي الوطيس، واحمرت الحدق، وزلزل الأبطال من الرجال، ولم تطق رؤية المنهزمين فقالت له: اقتلهم، فقد انهزموا بك.

ولكن ثبات الرسول ﷺ والثلة التي بقيت حوله من المؤمنين ومنهم أم سليم، أعادت الثقة إلى المسلمين مرة أخرى، فعادوا وقاتلوا وثبتوا حتى حققوا النصر العظيم.

---

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد الهاشمي، بتصرف.

(٢) تريد أنهم كانوا سببًا في هزيمة النبي بفرارهم عنه وقلة ثباتهم حوله.

فلا غرو أن يبشرها رسول الله ﷺ بالجنة، فعن جابر ﷺ قال: قال ﷺ: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ.. »[1].

فحُقّ لها أن تهنأ ببشرى النبي ﷺ لها، وحقّ لنا أن نتعلم في مدرستها.

* * *

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط٥ (١٤١٨هـ-١٩٩٨م)، ص ٨٢، بتصرف.والحديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

أسماء بنت يزيد ..
الثابتة أمام الأهوال

من النساء الصحابيات اللاتي كان لهن دور بارز في المجتمع الإسلامي قولاً وعملاً وجهادًا، في نشر دعوته، وإعلاء كلمته، فكانت نموذجًا يحتذى، ونبراسًا يستضاء به.

لقد نشأت أسماء في أسرة عرف أفرادها بالتضحية والجهاد منذ أن أعلنت كلمة التوحيد، فورثت أسماء عنهم حب الدعوة والجهاد، والصبر على تكاليفهما؛ ففي غزوة أحد قتل أبوها يزيد بن السكن، وعمها زياد بن السكن، وأخوها عامر بن يزيد، وابن عمها عمارة بن يزيد بن السكن، ما يبلغها مقتل أحدهم إلا قالت: وما صنع رسول الله ﷺ؟ فلما علمت بسلامة رسول الله ﷺ قالت: كل مصيبة بعد رسول الله ﷺ هينة.

فمن يقدر على ثباتك يا أسماء في مثل هذا الموقف، ويقول قولك؟

وشهدت أسماء كثيرًا من الأحداث الهامة في الإسلام بعدُ، كانت لها فيها هذه الروح المخلصة المؤمنة، والهمة العالية، فقد شاركت الرسول ﷺ في غزوة الخندق، وخرجت معه إلى الحديبية

وشهدت بيعة الرضوان-وكانت بيعة على الموت- وشاركت في غزوة خيبر، وظلت تقدم جهدها المشكور للإسلام وقضاياه حتى توفى رسول الله ﷺ وهو عنها راضٍ، ومع ذلك لم تتكاسل أو تخلد إلى الراحة، ولم تتوقف بعد وفاته عن نصرة الإسلام.

ثبات في غمار المعارك:

وفي السنة الثالثة عشرة من الهجرة خرجت إلى بلاد الشام وشهدت معركة اليرموك تسقي العطاش وتضمد الجرحى، وتشجع المجاهدين على الإقدام والصمود.[١]

وقد كان لموقف المسلمات الحسن وتثبيتهن المجاهدين أكبر الأثر في صمودهم وثباتهم حتى كتب الله لهم النصر على الروم.

ومما يذكره المؤرخون الثقات عن دور النساء في هذه المعركة: وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.[٢]

في هذا اليوم العصيب - حيث اشتد ضغط الروم على جند المسلمين، ورجفت الأرض بالهول، وتملك الخوف من بعض

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ٧/ ١٣.

النفوس، ولهجت ألسنة المسلمين بالدعاء أن ينصرهم الله على هذا الجيش العرمرم- أبلت البطلة أسماء بنت يزيد بلاء حسنًا، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والإقدام ما لم يبده كثير من الأبطال، فقد انغمرت في صفوف القتال، وأخذت تضرب أعداء الله ذات اليمين وذات الشمال حتى قتلت تسعة من الروم، وخرجت أسماء من المعركة وقد أثقلت الجراح كاهلها[1].

نعم خرجت لتسقي العطشى، وتضمد الجرحى .. ولكن عندما تأزمت المعركة، وحمي الوطيس، واحمرت الحدق، لم تفكر بالفرار أو الانسحاب، بل ثبتت وأدركت أن الواجب يحتم عليها أن تجاهد بما في وسعها وطاقتها، ولم تجد أمامها إلا عمود خيمة، فحملته وأردت به عددًا من المشركين.

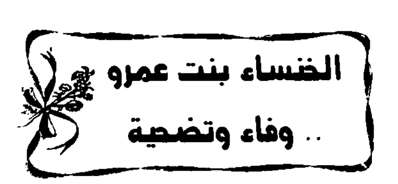
وقد نوه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني بشجاعتها بقوله: «أم سلمة الأنصارية هي أسماء بنت يزيد بن السكن، شهدت اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها».[2]

فرحم الله أسماء بنت يزيد بن السكن، وأكرم مثواها بما بذلت وعملت لتكون قدوة لغيرها في تقديم ما بوسعها وطاقتها في سبيل نصرة الحق، والثبات في الذود عنه وقت الشدائد والمحن.

---

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي.

(٢) الإصابة،لابن حجر العسقلاني، ٧/ ٤٩٨.



هي الشاعرة المشهورة صاحبة اللفظ والمنطق، وربة الرأي والبيان ، وصاحبة الإحسان والإيمان،وهي الوفية للأهل والمعروف.

قالت في أخيها وفاء له من الشعر ما ملأ الأسماع، وأعجب البلغاء، وكان أخوها صخر بها بارًّا، تقول في ذلك: زوجني أبي رجلاً مبذرًا، فأذهب ماله، فأتيت إلى صخر، فقسم ماله شطرين، فأعطاني أفضلهما، ثم فعل زوجي بالمال مثل ما فعل به أولاً، فقسم أخي ماله شطرين - مرة ثانية- فأعطاني خيرهما، فقالت له امرأته: أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار؟ فقال صخر:

والله لا أمنحها شرارها

وهى حصان[1] قد كفتني عارها

ولو هلكت خرقت خمارها

واتخذت من شعر صدارها

(١) حصان: عفيفة..

ولهذا لما قُتل ملأت عليه الدنيا شعرًا حتى سار به الركبان، ومن ذلك قولها فيه:

أيا صخر لا أنساك حتى
أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخرًا
وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي

وقد حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فصارت تعظهم وتحرضهم على القتال في سبيل الله وعدم الفرار من الزحف، ومما قالت: يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لأبناء أب واحد، وأم واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت أخوالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[آل عمران: ٢٠٠] . فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم

الحـرب قـد شمـرت عـن سـاقها، واضـطرمت لظَـى .. فتيممـوا وطيسها[١] وجالـدوا رئيسـها عنـد احتـدام خميسـها، تظفـروا بـالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا جميعًا، والتهمتهم المعركة في سبيل الله سبحانه وتعالى، ونصـرة دينـه، وكـل منهم يذكر وصية أمه له، فأنشد الأول:

يا إِخوتي إنَّ العجوزَ الناصحَهْ

قَدْ نَصحتنا إِذْ دَعَتْنا البارحـهْ

بِقالةٍ ذَاتِ بَيـانٍ وَاضحهْ

فَباكُروا الحَربَ الضَّرُوس الكالحهْ

وتقدم فقاتل حتى قتل، ثم حمل الثاني وهو يقول من الرجز:

إنَّ العجوزَ ذَاتُ حَزْم وَجَلَدْ

والنَّظر الأوْفق والرأي السَّدَد

قَدْ أمَرَتْنا بِالسَّـدَاد وَالرَّشدْ

نَصيحةً مِنْها وَبِـرّاً بِالوَلدْ

---

(١) وطيس: وطست الركاب: كسرته، ومن المجاز: حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب. وتواطست الأمواج: تلاطمت

وقاتل حتى قتل، وحمل الثالث وهو ينشد:

والله لا نعصى العجــوز حرفــاً

نصحًا وبرًا صادقًا ولطفًا

فبادروا الحرب الضروس زحفًا

حتى تلفوا آل كسـرى لفًا

وقاتل أيضا حتى استشهد، وحمل الرابع وهو ينشد:

لَسـنا لخَنسـاء ولا للأحَــزم

وَلاَ لعمرو ذِي السَّناء الأقدَم

إنْ لم أرد في الجَيش جيش الأعجم

ماض على هول خصمٍّ خِضرم

إمــا لِفــوز عاجل ومَغنم

أوْ لوفاةٍ في السَّبيل الأكرم

وتقدم فقاتل حتى استشهد.

* * *

ثبات اليقين يصوغه الإيمان:

فلما بلغها استشهادهم لم تجزع، ولم تملأ الدنيا عويلاً وهي التي لم تصبر على فقد أخيها في الجاهلية، وإنما وجدنا الإسلام قد صاغها صياغة جديدة كان من ثمرتها أن تصير الخنساء قدوة حسنة لآباء وأمهات الشهداء، إذ قالت واثقة بحسن العاقبة، صابرة على قضاء الله، فخورة بنيل أبنائها لشرف الشهادة: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وإني لأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

فكان عمر بن الخطاب يعرف لها حسن صنيعها ومنزلتها في الإسلام ويعطيها عطاء أربعة رجال حتى قبض ﷺ.[1]

هذه هي النساء اللائي تربين الرجال، وتدفعهم إلى المجد والعمل الصالح الباقي، وتقود المعارك خلف الرجال ومعهم بالنصح والتوجيه والمساندة، التي يحتاجها الجنود في المعارك الفاصلة، غير هيابة ولا وجلة.

* * *

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ٤/ ١٨٢٧-١٨٢٩، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ٧/ ٦١٤،٦١٦.

أم حكيم المخزومية .. تجاهد بثياب العُرس

أسلمت أم حكيم بنت الحارث المخزومية يوم الفتح العظيم، وفر زوجها عكرمة بن أبي جهل وهو على كفره إلى اليمن، فاستأذنت الرسول ﷺ أن تلحق به وتأتي به مسلمًا بإذن الله، فأذن لها.

وعادت أم حكيم بزوجها عكرمة، ليعلن انسلاخه من جاهليته، ويدخل في دين الله، وبجانبه أم حكيم الزوجة الوفية المؤمنة.

وفي اليرموك سجل عكرمة ﷺ أنصع صفحة في تاريخ حياته المؤمنة الشامخة بالإسلام العظيم، حين وقف -وقد كاد المسلمون ينكشفون عن مواقعهم- يصيح في الرهط المؤمن: من يبايع على الموت ..؟ فيبايعه أربعمائة صنديد من أبطال المسلمين، ويقاتلون الروم قتال من يطرق أبواب الجنة بشوق، فيتساقط الشهداء، ويسقط عكرمة ﷺ شهيدًا في الخالدين.

أما أم حكيم بنت الحارث، الزوجة المؤمنة الوفية، فتمضي مع ركب المجاهدين بجلد وصبر، وقد احتسبت الزوج الشهيد عند الله ﷻ.

ويتقدم بعض رجالات قريش وفرسانها لخطبتها بعد مضي عدتها ومنهم الصحابي الجليل والفارس الشجاع خالد بن سعيد بن العاص ﷺ ، فترضاه زوجًا من بينهم وهي التي تعلم شغفه بالجهاد وطلبه للشهادة في كل موقعة، يشد أزرها وتشد أزره في معارك الجهاد في سبيل الله، ويطلب خالد من أم حكيم أن يُعرّس بها في مرج الصفر[1]، فتقول له وقد استحوذ حب الجهاد على عقلها وقلبها: أفلا تنتظر يا خالد حتى يهزم الله جموع الروم التي تحيط بنا ؟

فيجيبها خالد: يا أم حكيم، إن نفسي تحدثني أني مقتول في غدي.

قالت: فافعل ما ترى يا خالد.

وأعرس خالد بأم حكيم عند القنطرة التي بالصفر -والتي سميت فيما بعد قنطرة أم حكيم- فلما أصبحا أولم لرهطه وليمة، وما كاد ضيوفه يفرغون من طعامهم، حتى نزلت بهم الروم من كل جانب وقد صفوا صفوفهم، واحتدم قتال مرير، ولم يلبث خالد بن سعيد أن سقط شهيدًا في سبيل الله.

(١) مرج الصفر: موضع بين دمشق والجولان، كانت به معركة مشهورة بين المسلمين والروم.

ثبات يصنعه الحب:

وتجلدت أم حكيم وقد فجعت بزوجها خالد، بعد أن فجعت من قبل بزوجها عكرمة، وشدت عليها ثياب عرسها، وبرزت إلى ميدان المعركة ولَّما يَزُل عنها أثرالخلوق[1] بعدُ، وكان القتال على أشده بين الفريقين، وطال أمد القتال، واشتد ضغط جحافل الروم الكثيفة على المسلمين حتى اقتربوا من مكانها بجوار خيمتها، فلم ترض بأن تتخلى لهم عن مكانها، أو تفر مبتعدة وناجية بنفسها، وإنما وقفت كالطود الشامخ وكان غيظها من الروم قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، وإذ بها في فورة حماستها تنسى أحزانها، بل وتنسى كل شيء إلا شيئًا واحدًا، هو تبديد هذا الظلام الذي يحاول أن يغشاهم ويريد أن يحجب ويصد نور الإيمان عن العالمين، فضلاً عما يمور بصدرها من غضب على الروم بسبب قتلهم لزوجيها الحبيبين، كان إحساسها بهذا الأمر يؤجج لهيب حماسها، وإذا بها تنظر حولها بحثًا عن أي سلاح تخوض به غمار هذه الحرب الضروس فلا ترى سوى عمود خيمتها، فلم تتردد أن اقتلعت عمود الفسطاط الذي أعرس بها خالد تحته، واندفعت نحو قتلة زوجها خالد تقاتلهم بعمود الفسطاط

(١) الخلوق: ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره، وتغلب عليه الحمرة والصفرة، وهو من طيب النساء خاصة.

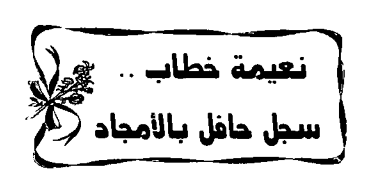
قتالاً شديدًا، فقتلت به سبعة من صناديدهم، وتنتهي المعركة بنصر مؤزر لجيش المسلمين[1].

امرأة بملابس عرسها وبعمود خيمتها تقتل سبعة من الروم!

هكذا المرأة المسلمة تعرف ربها، وتدرك رسالتها، فهي قرة عين لزوجها، وراعية مسئولة في بيت الزوجية، ومجاهدة قوية خارج بيتها، تعرف واجبها في كل ميدان وتحسنه.



(١) انظر:الاستيعاب ٤/ ١٩٣٢-١٩٣٣.



نعيمة خطاب .. سجل حافل بالأمجاد

إن الإيمان العميق الواضح النقي يزيد شخصية المرأة قوة ووعيًا ونضجًا، فإذا هي ترى الحياة على حقيقتها، والدنيا دار ابتلاء واختبار، ستعرض نتائجها في يوم آتٍ لا ريب فيه، فتعد لآخرتها ما تستطيع من الأعمال الصالحات[1]

وبدون هذه المعاني سيكون عسيرًا جدًا أن نفهم أسرار عظمة التضحيات التي تبذلها بعض النساء لنصرة دعوة الله، وإعلاء رايته دون انتظار شكر أو مغنم دنيوي.

ومن هؤلاء النساء نعيمة أحمد خطاب- زوجة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين- والتي لم يكن لها قبل تولي الهضيبي منصب المرشد نشاط مع الإخوان سوى الحضور فقط لدرس«حديث الثلاثاء» للإمام حسن البنا.

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط٥(١٤١٨هـ-١٩٩٨م)، ص١٤،١٥.بتصرف يسير.

استعداد عجيب للثبات:

بعد اغتيال الإمام حسن البنا وما تعرضت له الجماعة من اعتقال وتعذيب وتشريد لبعض أفرادها عُرض على الإمام الهضيبي تولي منصب المرشد، فلما أخبر زوجته اقترحت عليه قبول المنصب، فقال لها: هل أنتم مستعدون للمحن والتعذيب والاعتقال؟ فقالت: مستعدون، لقد بعنا أنفسنا معك على الشهادة.

وشاءت إرادة الله أن تبتلى هذه الأسرة المؤمنة، ويظهر صدق قولها، وعظم ثباتها، عندما جاءت مجموعة من الضباط للقبض على الأستاذ حسن الهضيبي سنة ١٩٥٤، فلمع الجوهر الحقيقي لهذه المرأة العظيمة، وأظهرت هذه الزوجة مثالاً رائعًا للمرأة المسلمة، التي تقف خلف زوجها، وتكون نعم القائد في الجبهة الداخلية (البيت)، فعندما همّ الأستاذ الهضيبي ليذهب مع رجال الشرطة ودّعته تلك الزوجة بقولها: لا تهتمَّ، الله معك، ثم قرأت الآية الكريمة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤].

إصرار يستهين بالأخطار:

وبعد ذلك كانت السيدة نعيمة - على الرغم من هذا الوقت العصيب في تاريخ الإخوان- تتخذ من فرص ركوب الترام وسيلة لتغيير فكرة الناس عن دعوة الإخوان، حيث كان الإعلام يصورهم

على أنهم إرهابيون، فكانت تحضر معها مجموعة من رسائل الإمام حسن البنا، وتطلب من ابنتها علية الهضيبي أن تمسك بها ولا تغطيها؛ حتى يراها الناس ويتعرفوا على صفات الجماعة وأفكارها، ويعرفوا زيف كلام الإعلام عن الإخوان.

وفي فترة اعتقال زوجها كانت تقوم بزيارة أسر زوجات المعتقلين، وتقديم العون لهم قدر استطاعتها، ولم تتخل عن الدعوة أو تختبئ حفاظًا على مستقبل أبنائها، بل إنها عندما اعتقل المرشد سنة ١٩٥٤ ذهبت إليها زوجة أحد الوزراء لتواسيها هي وبناتها الثلاث حيث كان أولادها الذكور في المعتقل مع أبيهم، فنهضوا جميعًا لاستقبالها بالترحاب، ولما استقرت حرم الوزير في مجلسها في بيت الهضيبي أرادت أن تواسي الحاجة نعيمة فقالت:

يا ست أم أسامة، هوني عليك "فحسن بك" بخير، وقد أرسلني زوجي لأحمل لكِ تحياته ولأطمئنك.

فقالت لها الحاجة نعيمة: شكرًا لك وللوزير، ولكن من أخبره أننا في قلق حتى ينصحنا بالاطمئنان ويبشرنا بسلامة الأستاذ.

زوجة الوزير: أعني أن الجهود مبذولة لمنع محاكمته أمام محكمة الثورة.

فقالت الحاجة نعيمة: أتريدين تذكيري بأن الأحكام تصدر من

قبل المحكمـة، وأن المصـير هـو الإعـدام، يـا سـعدية هـانم، اسمعـي مشكورة وبلّغي الوزير: إن حسن الهضيبي ما تولى قيادة الإخوان إلا وهو يعلم أن سلفه العظيم حسن البنا قد اغتيل وأهـدر دمـه علنًـا، وما رضي بالخلافة إلا وهو ينتظر هذا المصير، ولقد بعنا أنفسنا معه.

ثم التفتت إلى بناتها لتقول لهن: هذا ما عندي، فماذا عندكن يا بنات؟ فتقول البنات اللائي تربين علي يد هذه المجاهدة: ليس عنـدنا إلا ما عندك يا أماه!

ولما صدر حكم الإعدام على زوجها عرضوا عليها أن يقـدموا التماسًا باسم ابنته علية؛ لأنها صغيرة، فيخفف عنـه الحكـم، ولكـن السيدة نعيمة رفضت وقالت: ممنوع تقديم أي التماس؛ لأنكم بذلك ستقتلونه مرتين.

ثبات لا يعرف التخاذل:

وحين خفف الحكم عنه بطلب من الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله، أرسلت له السيدة نعيمـة رسـالة عـبر السـفارة، ووقعـت عليها باسمها واسم بناتهـا، وعنـدما تسـلم الملـك الرسـالة أخذتـه الدهشة والإعجاب والإجلال، وكان نص الرسالة:

«يا جلالة الملك، إننا إذ نشكر كريم عاطفتك نؤكد لك أننا على عهد الدعوة وميثاق الجهاد، سـواء أستشـهد الهضـيبي أو طالـت بـه

الحياة، فلن تقف عجلة الصراع؛ لأنه ليس صراعًا بين الهضيبي وعبد الناصر، ولا بين الإخوان والثورة، ولكنه الصراع الأزلي الأبدي بين الحق والباطل .. وسيظل لواء الدعوة مرفوعًا، وعملها موصولاً ولو ذهب في سبيله آلاف الشهداء من الرجال والنساء، حتى تعلو كلمة الله؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون».

أي ثبات على الدعوة والمبدأ هذا ؟ وأي إيمان يقف خلفه؟ حقا إنها بيعة مع الله.

وقدر الله للسيدة الفضلى أن تنال قسطها المباشر من البلاء، حيث تم اعتقالها وهي في سن ٧٨ عامًا، فاقتيدت في بعض مراحل المحنة الطاحنة إلى السجن، وألقي بها في زنزانة مظلمة، فاعتبرتها فرصة تتيح لها الانفراد بالمولى سبحانه والأنس بمناجاته، وذلك بعد أن وخطها الشيب ووهن منها العظم -وإن بقي لها مضاء العزم- وأصيبت بطائفة من الأمراض عجزت كلها أن تصيب مناعة النفس، وكانت تعلم أنها لم يبق من أبنائها أو بناتها من لم يشرفه الله باحتمال محنة التعذيب والسجن، وعلى الرغم من كل ذلك كانت (أم أسامة) في دياجير المحنة كما كانت في منازل الرخاء والعافية، مجلَى بشاشة لا يتجهم، ومعين سكينة لا ينضب، وفيض أمن لمن حولها لا يخاف ولا يفزع، ومثال رزانة وصبر لا يتخلف، ولِمَ لا وهي ترى من نفسها قدوة لأخواتها المسلمات؟!

ثبات يلهم الأجيال:

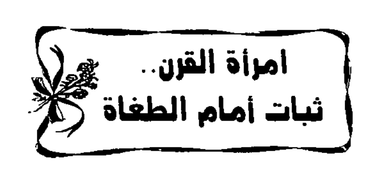
تقول السيدة نعيمة: إنها لما دخلت السجن كانت ترتدي ملابس خفيفة وكان الجو باردًا، والسجن في منطقة خلاء، وكانت في طريقها للتحقيق تسمع صوت تعذيب الإخوة.ويا لقلوب معتقليها من قلوب لا تعرف الرحمة أو الإنسانية!

وتحكي ابنتها خالدة التي اعتقلت معها فتقول: أخذونا إلى سجن القناطر وأنزلونا هناك، وأخذوا يرفعون أصواتهم علينا ويخوفوننا، وأنا أرد عليهم بصوت عال فقالت أمي: يا خالدة، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

فتقول خالدة: أنا حفظتها من أمي حتى لا أنفعل وأرد عليهم، وقلت لها: أنا أحتاج هذا العزم يا أمي.

وفي ٩ مارس سنة ١٩٧٦ انتقلت السيدة نعيمة خطاب إلى جوار ربها، بعد حياة حافلة بمواقف الثبات على طريق الدعوة والبذل والعطاء في سبيل الله.

رحلت بعد أن ربّت جيلاً عظيمًا من الأخوات المسلمات ليس في مصر وحدها، بل في بلاد كثيرة من أنحاء العالم، وكانت بحق امرأة مجاهدة وقفت إلى جوار رجل مجاهد، وضربت أعظم المثل لأجيال الإسلام في هذا العصر.



ساومها أكبر وأخطر جهاز أمني في بلدها على ترك الدعوة إلى الله، أو إغلاق مركزها العام للسيدات المسلمات، مقابل أن يجعلوها رئيسة تحرير مجلة السيدات المسلمات، وتكون صاحبة الامتياز وبراتب ٣٠٠ جنيه شهريًا- لاحظ أن ذلك في الستينات- على أن ألا يكون لها شأن بما يُكتب في المجلة، فقالت: مستحيل أن تصدر مجلة السيدات المسلمات من مكاتب المخابرات لتنشر علمانية عبد الناصر..

فعرضوا عليها إعادة المركز العام، وصرف إعانة قدرها عشرون ألف جنيه سنويًا على أن يكون من مؤسسات الاتحاد الاشتراكي.

فكانت إجابتها: إن شاء الله لن يكون عملنا إلا للإسلام، إن الذين يتكسبون بالإسلام لا يستطيعون خدمته.

وقالوا لها: لو تفاهمت معنا لأصبحت من الغد وزيرة للشئون الاجتماعية. فضحكت ساخرة وقالت: المسلمون لا تغريهم المناصب.

ولما حُكم بالإعدام على كثير من إخوانها الدعاة جندت نفسها

لتكون في خدمة ذويهم، وتقول عن تلك الفترة: كانت صرخات اليتامى الذين فقدوا آبائهم بالتعذيب، ودموع النساء اللاتي ترملن وأزواجهن خلف السجون- ينفذ إلى أعماقي.. ووجدت نفسي وكأني من المسئولين عن ضياع الجياع وجراح المعذبين.. وأخذت أقدم القليل.

فهكذا كانت ترى ما تفعله دائما قليلاً أمام همتها العالية وتواضعها الجم.

ولما انشغلت بالدعوة ونشاطها وأراد زوجها أن يتباحث معها في خطورة ما يمكن أن تتعرض له، قالت: إذا تعارضتْ مصلحتك الشخصية وعملك الاقتصادي مع عملي الإسلامي، ووجدتُ أن حياتي الزوجية ستكون عقبة في طريق الدعوة وقيام دولة الإسلام، فسنكون على مفترق طريق.. أنا لا أستطيع أن أطلب منك اليوم أن تشاركني هذا الجهاد، ولكن من حقي أن أشترط عليك ألا تمنعني جهادي في سبيل الله، ويوم تضعني المسئولية في صفوف المجاهدين فلا تسألني: ماذا أفعل؟ ولتكن الثقة بيننا تامة.

ثبات يطيش بعقول الطغاة:

كانت تسهر الليل تقرأ وتخطط وتناقش مستقبل الدعوة مع إخوانها، ولكن هذا النشاط المتدفق، والروح المتوثبة، والهمة المتوهجة لم تكن لتخفى عن أعين من يعرفون حجمها الحقيقي،

وأثرها العميق في الحياة العامة وقتئذ، فتربص بها زوار الليل وخفافيش الظلام حتى أخذوها من بيتها إلى السجن.. إلى زنازين الاعتقال حيث أذاقوها من العذاب ما لا يصبر عليه أشداء الرجال مجتمعين.. فضلاً عن أن تحتمله امرأة فاضلة عفيفة، ووكلوا بها أكابر مجرمي السجن الحربي من ضباط وحراس؛ ليحيلوا حياتها داخل السجن إلى جحيم تلظى، وسعير تشوى فيه على مهل، مزقوا جسدها بالسياط حتى الإغماء،

وقذفوها بأقذع الشتائم والسباب.. علقوها.. وأثخنوها ضربًا وجراحًا.. وجوعوها.. وحاولوا انتهاك عرضها.. لم تتفتق أذهانهم القذرة عن وسيلة بشعة إلا واستعملوها؛ لإجبارها على قول ما يريدونه من كشف عن نشاطها، أو عمن تعمل معهم، أو حتى مجرد اعتذار لعبد الناصر فأبت، كل هذا ليس مرة أو يومًا، بل يتكرر يوميًا وأسبوعيًا وشهريًا وهي ثابتة صامدة.

رؤيا.. خففت الآلام:

وكلما نهشت الآلام جسدها ونخرت في عظامها تلجأ إلى الله في ضراعة قائلة: اللهم اشغلني بك عمن سواك، اشغلني بك أنت يا إلهي، يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد.. اشغلني عن الأغيار كلها، أوقفني في حضرتك، اصبغني بسكينتك، ألبسني أردية محبتك.

رأت النبي ﷺ في تلك المحنة العصيبة مرات، فكان ذلك يشد من

أزرها ويضاعف عزيمتها على الصبر والثبات، ومما ترويه أنه ﷺ قال لها: «أنتم يا زينب على الحق.. أنتم يا زينب على الحق.. أنتم يا زينب على قدم محمد عبد الله ورسوله». فتقوم من نومها وهي لا تشعر بألم السياط ولا الصلبان التي علقوها عليها في الليل.

حتى هنا دعوة!

وفي وسط هذا الزخم الهائل من البلاء الفائق لم تكن تغفل عن دعوتها، وكلما طلبوا إليها أن تكتب لهم ما يملونه عليها من افتراءات، كانت تتخذها فرصة لتسطر كلمات تسطع بضياء الحق، وكان مما كتبته لزبانيتها مرة: «إن غايتنا أن ننشر دعوة الله وندعو للحكم بشرعه، إنني باسم الله أدعوكم أن تتخلوا عن جاهليتكم وتجددوا إسلامكم.. وتتوبوا إلى الله من هذه الظلمة التي رانت على قلوبكم.. اللهم اشهد أني قد بلغت دعوتك، فإن تابوا فتب عليهم».

فلا يزيد كلامها الطغاة إلا سعارًا، ففعلوا كل ما يخطر ببال الشياطين وما لا يخطر لإرغامها على التحول عن موقفها، ففشلوا فشلاً ذريعًا، وتحملت كل ما صنعوا مما لا تكفينا هذه الأسطر القليلة لسرد تفاصيله دون أن تبكي استعطافًا أو استرحامًا أو طلبًا لبعض الرأفة والراحة، حتى أجبرهم ماحلّ بجسدها الممزق على نقلها إلى المستشفى، وحتى في المستشفى لم يرحموها من الإيذاء والإكراه والقهر، ومع ذلك لم يظفروا منها بشيء.

وما كادت تسترد جزءًا بسيطًا من عافيتها حتى أعادوها ثانية إلى السجن الحربي؛ ليمارسوا معها هوايتهم المفضلة في التعذيب والتنكيل بها، ومع ذلك ما وهنت لها عزيمة، ولا أسلمت لهم عنانها.

إنها مشاهد.. من مسلسل طويل:

كان كل ما روينا هنا وتحدثنا عنه مشاهد بسيطة من مسلسل طويل من التعذيب والتجويع والإفزاع والتنكيل في مقابل صبر منها وثبات يضاهي الجبال في رسوخها، وموقف حفظه لها التاريخ ودعوة الله، وإيمان عميق بالفكرة والمبدأ، ووفاء عظيم للرسالة التي اختارتها.

إنها منظومة عطاء وتضحية وثبات لم تصدر عن امرأة من وحي الخيال، وإنما عن امرأة من لحم ودم..

بمثل هذه المرأة المؤمنة فلتقتدِ المؤمنات في عصرنا، وليفاخرن بها الرجال في ساحات النضال لإعلاء كلمة الله، فقد أثبتت هذه المرأة الدور العظيم الذي يمكن أن تقوم به المرأة في حمل رسالة الإسلام.. إنها بحق امرأة القرن.. إنها الحاجة زينب الغزالي [١].. جزاها عن الإسلام ودعوته خير الجزاء. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

(١) توفيت إلى رحمة الله بعد كتابة هذا الكتاب، وقبل طبعه.

أمينة قطب..
الثبات والتضحية والوفاء

لقد أثمرت الصحوة الإسلامية ثمرات عجيبة في حياة المسلمين والمسلمات، أعادت إلى القلوب والأذهان تلك المعاني السامية والنبيلة التي تحلى بها الرعيل الأول من الصحابة، وهذه الثمرات كان لها أحلى المذاقات وأطيب الآثار في استبقاء الآمال باستعادة قيم ومبادئ وأخلاق ذلك الزمن الجميل الذي عاشه المسلمون والمسلمات الأوائل، والذي كان الكثيرون- قبل هذه الصحوة المباركة- يشككون في إمكان استرجاعها، بل وكانوا يرونه حلمًا عصيًا على التحقق يراود أشخاصًا لا يعيشون واقعهم؛ فما فات لابد وأنه قد مات.

ولكن جيل الصحوة الذي أيقظه الإيمان، وتربى على موائد القرآن والسنة النبوية المطهرة، وتمثلهما قولاً وعملاً أثبت أن الحلم بات وشيك الوقوع.

وليس أدل على هذه الثمرات من هذه الشاعرة الأديبة التي تقف كلماتي عاجزة عن الوفاء لها بحقها من الثناء والتقدير.

إنها أمينة قطب أخت الشهيد سيد قطب التي سخرت حياتها،

ووهبت شبابها لمساندة رجل من رجالات الدعوة سجن ظلمًا وعدوانًا؛ لأنه ينتمي إلى جماعة تدعو الناس إلى العودة إلى دينهم وأخلاق نبيهم.

كان هذا الرجل هو الأستاذ كمال السنانيري أحد كبار رجالات الدعوة في جماعة الإخوان المسلمين.

امرأة من طراز فريد:

وتبدأ قصتها الفريدة مع هذا المجاهد الكبير بعد أن طلب أهل زوجته الأولى تطليق ابنتهم لما لاقوه من مضايقات أمنية بسبب صلتهم به، فما كان منه بكل نبل إلا أن طلقها؛ ليهنأ أهلها بالراحة التي ينشدون لأنفسهم ولابنتهم.

وبعد ذلك طلب الأستاذ كمال السنانيري من الشهيد سيد قطب أن يزوجه أخته، وعرض سيد قطب الأمر على أخته، فوافقت بلا تردد، وأخذت عنوانه في السجن، وتمت الرؤية ثم عُقد الزواج الذي كان مثار سخرية من الناس، ولم يتخذ زواجها منه جانبه الشكلي، وإنما عاشت تلك الفترة معه بكل وجدانها وروحها، مع الرجل الذي ضحى بنفسه في سبيل دينه وأمته، واختارها من دون نساء العالم لتقف إلى جواره، وتشد من أزره، وكانت أمينة كأفضل مما يحسب ويتوقع، كانت تكثر من زيارته وتبذل أقصى الجهد لتكون معه خلال تلك الدقائق الواحة التي تهنأ فيها نفسه، وينسى معها

آلامه، وتريه الأمل في عينيها مبشرًا بمستقبل أروع وأنضر.

وهكذا كانت زياراتها ورسائلها إليه بما تحمل من روح دافعة تتحدى الظلم والظالمين، والسجن والسجانين، تقوي من أزره وأزر إخوانه.

ثبات يزيده الزمان رسوخًا:

ولكن طبيعة المشاعر والعواطف أنها شديدة التقلب، سريعة التغير، فكيف تحتمل هذه الفتاة الغضة طول الفراق؟ ولِما أكون سببًا في شقائها وعنائها؟ لاشك أن مثل هذه الأفكار قد راودت هذا المجاهد الكبير فآثر أن يواجه المحنة منفردًا، وإذا به يعرض عليها أن يطلقها بعدما طالت المدة، فرفضت. فقال لها: لقد طال الأمد وأنا مشفق عليكِ من هذا العناء، ومثل ما قلت لك في بدء ارتباطنا قد أخرج غدًا، وقد أمضي العشرين سنة الباقية، وقد ينقضي الأجل وأنا هنا، فلكِ الآن مطلق الحرية في أن تتخذي ما ترينه صالحًا في أمر مستقبلك .. ولا أريد ولا أرتضي لنفسي أن أكون عقبة في طريق سعادتك، فلكِ الخيار من الآن، واكتبي لي ما يستقر رأيك عليه، والله يوفقك لما فيه الخير.

وإذا كان لوهج العواطف أن يخبو بمرور الوقت، وللحماسة أن تهدأ مع جريان العمر، فإن كلمات المجاهد زادتها إعظامًا وإكبارًا له، وأشعلت جذوة شاعريتها للتعبير عن ثبات اختيارها، وتمسكها به،

وإصرارها على الوقوف إلى جواره.

ثبات يفجر ينابيع الأشواق:

وعادت إلى البيت لتكتب له رسالة كانت قصيدة نظمتها له؛ لتعلن فيها أنها اختارت طريق الجهاد.. طريق الجنَّة.. وقالت له: دعني أشاركك هذا الطريق. وكان لهذه القصيدة أثر كبير في نفس المجاهد.

وتقول هي عن تلك الفترة: كان هذا الارتباط بالمجاهد كمال السنانيري وهو داخل السجن قمة التحدي للحاكم الفرد الطاغية، الذي قرر أو تقرر له من قبل صانعيه، أن يقضي على دعاة الإسلام؛ إما بالقتل، أو الإهلاك بقضاء الأعمار داخل السجن.

وانتظرت العروس السجين حتى أفرج عنه بعد أن قضى اثنين وعشرين عامًا وراء أسوار السجن، ودخلت على عريسها، وعاشت معه أحلى سنوات العمر، ولكن الطغاة لم يمهلوا العروسين، ففي الرابع من سبتمبر سنة ١٩٨١ اختطف منها مرة أخرى ليودع السجن ويبقى فيه إلى أن يلقي الله شهيدًا في السادس من نوفمبر من نفس العام[١].

---

(١) انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، لمحمود محمد الجوهري، ومحمد عبد الحكيم خيال، دار التوزيع والنشر الإسلامية (القاهرة- مصر)، ط٣ (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، ص٢٨٠-٢٨٢.

فاحتسبت وصبرت، ولكنها انطلقت مع عواطفها المرهفة ترثيه بقلمها السيال العذب الحنون تقول:

ما عدت أنتظر المجيء ولا الحديث ولا اللقاء

ما عدت أرقب وقع خطوك مقبلاً بعد انتهاء

ما عدت أهرع حين تقبل باسمًا رغم العناء

وأضيء نور السلم المشتاق ينعم بارتقاء

ويضيء بيتي بالتحيات المشعة كالرجاء

ونعيد تعداد الدقائق كيف وافانا المساء

وينام جفني مطمئنًا لا يؤرقه عناء

ما عدا يطرق مسمعي في الصبح صوتك بالدعاء

إلى أن تقول تصور لقاءه وإجابته لنداء ربه، وفرحه بالجنان والأحباب من المجاهدين:

ومضيت كالمشتاق كالولهان حبًا للنداء

وهل التقيت بالأحباب ؟ ما لون اللقاء ؟

في حضرة الديان في الفردوس من فيض العطاء

وبدار حقٍّ قد تجمعتم بأمن واحتماء

إن كان ذاك فمرحبًا بالموت مَرحَى بالدماء

فلسوف ألقاكم هناك وتختفي دار الشقاء

ونثاب أيامًا قضيناها عناء وابتلاء

وسنحتمي بالخلد لا نخشى فراقًا أو فناء

وهكذا بقيت هذه المرأة العظيمة وفية لدعوتها وزوجها ما وسعها الجهد، ضاربة بما صنعته مثلاً رائعًا في الثبات والوفاء مهما تغيرت الظروف، وتقلبت الأحوال، وتطاول الزمان.

* * *

حميدة قطب .. مَضاءٌ وشموخ

إن يقظة الضمير والإيمان التي تسببت فيها الصحوة الإسلامية كان لزامًا أن تتعرض للتمحيص الذي يكشف عن عمق جوهرها من زيفه، وكانت أسرة الشهيد سيد قطب واحدة من الأسر التي أثبتت صدق إيمانها، وثباتها على عهدها مع الله ودعوته، فلم تغير ولم تبدل على الرغم من كل الفظائع والأهوال التي لاقتها في طريق الدعوة، وراحت تقدم التضحية تلو التضحية محتسبة الأجر عند الله، وعند الله في ذاك الكفاء.

فها هي الأخت الصغرى للشهيد سيد قطب والتي كانت كاتبة متميزة، وصاحبة اهتمامات أدبية، حيث كانت تكتب الخواطر، ثم صارت لها اهتمامات إسلامية عندما توجهت الأسرة كلها للعمل الإسلامي، ومن ثم استثمرت مهارتها البيانية، ونشرت مقالات إسلامية في مجلتي «المسلمون» و «الإخوان المسلمون» وغيرهما.

وإضافة إلى ذلك كانت تقوم بأعمال دعوية وأنشطة كثيرة خاصة بعد محنة الإخوان المسلمين في ١٩٥٤م، حيث قامت حميدة مع مجموعة من الأخوات المسلمات المجاهدات برعاية أسر وعائلات

الإخوان المعتقلين، وكانت الساعد الأيمن للمجاهدة زينب الغزالي، كما كانت حلقة الوصل بين التنظيم الإخواني خارج السجن، وبين شقيقها السجين سيد قطب تحمل تعليماته وتوصياته للإخوان.

لم ترهب ذلك المصير الذي سبقها إليه أخوها، ولا ذلك التعذيب الذي مورس ضد زينب الغزالي، واستمرت تمارس أعمال الدعوة والإعانة لأسر المعتقلين مع أن اكتشاف أمن الدولة لأمر كهذا كفيل بتعريضها لأسوأ الأخطار والأهوال.

وبينما كان يراودها الأمل في الإفراج عن أخيها المعتقل ظلمًا، إذ بها تتلقى خبر الحكم بإعدام أخيها سيد أحب الناس إلى قلبها، وأعلاهم مكانة، فتتجلد وتصبر.

ثبات يغيظ الطغاة:

ولكن الطغاة لم يعجبهم أن يروا مثل هذا التجلد والثبات الذي يثبت باطلهم، ظانين أن كل الذمم والضمائر يمكن أن تُشترى وتباع، وما لا يأتي بالوعيد يأتي بالوعود، فما كان منهم بعد الحكم على الأستاذ سيد قطب بالإعدام، إلا أن جاءها رجال المباحث العامة صبيحة اليوم الذي تقرر فيه تنفيذ الحكم، وحاولوا إقناعها بأنهم لا يريدون إعدامه، وما عليها إلا أن تقنع أخاها بالتنازل قليلاً وتأييد النظام القائم، وأمعنوا في الضغط عليها، واضطرت للذهاب إليه وأخبرته، فقال لها: وماذا ترين أنت يا حميدة؟

قالت: أرى أن تمضي لما تراه من الحق .. الحق أحق أن يتبع.

بهذه الكلمات التي تفيض يقينًا بالحق، وضرورة الثبات عليه، آزرت أخاها وشجعته وثبتته وهو الثابت الشجاع، ونفذ الحكم الجائر، واحتسبت الأخت أخاها في صبر جميل.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، ووقف عند هذا الحد، ولكنهم ما لبثوا أن قبضوا عليها، وكان نصيبها من الابتلاء والتعذيب - في محنة ١٩٦٥- كبيرًا، حيث عُذبت تعذيبًا لا يكاد يوصف.

ومع ذلك لم يستطيعوا أن يحصلوا منها على ما يريدون، أو حتى أن تقول فقط ما يريدون قوله، فما كان منهم إلا أن قرروا الانتقام من هذا القلب الشجاع بأن تبقى في السجن أطول فترة ممكنة ظلمًا وعدوانًا، فكانت هي الوحيدة التي حكم عليها بالسجن من آل قطب، فشقيقها سيد حُكم عليه بالإعدام، على حين حكم عليها القاضي العسكري محمد الدجوي بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، قضت منها ست سنوات وأربعة أشهر بين السجن الحربي وسجن القناطر، ورافقت الحاجة زينب الغزالي في سجن النساء بالقناطر، وفي أسلوب خسيس تم الإفراج عن الحاجة زينب وحدها، وتركوها في السجن ستة أشهر بعد الحاجة زينب الغزالي حيث أفرج عنها في نهاية عام ١٩٧١م.

ولاشك أن حجم الابتلاء الذي لاقته المجاهدة حميدة قطب في

محنة (٦٥) يفوق الوصف، فقد استشهد أخوها، وعاشت ويلات التعذيب داخل السجن الحربي، وافقته على الثبات والاستشهاد بدلاً من الخنوع والخضوع، وثبتت عندما أرادوا لها الانهيار، موقنة أن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها، نسأل الله أن تكون مواقفها هذه ذخرًا في ميزان حسناتها يوم الحساب.

* * *

آياتُ نضالٍ .. لا آية واحدة

ثم تأتي من فلسطين المسلمة صيحات وتضحيات تعلن استمرار المسيرة، وأن الإيمان الذي أظهر بطولات نسائية نادرة، والذي حطم أصنام الخوف ومزق حب الدنيا في هذه القلوب المفعمة باليقين، بأن النعيم الحقيقي ليس في الدنيا قادر- حين نتخلص من قيود الوهن، ونطلق لأرواحنا العنان في سباق: ﴿وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ١٣٣]- على صنع البطولات الباهرة التي تشتاق الجنة لأصحابها.. وإنه والله لفوز عظيم.

هذا الإيمان قادر دائمًا أن يهبَ روحه المتوثبة المشبوبة، وقوته الدافعة المتعاظمة لكل من اختاره منهجًا لحياته، ونبراسًا يهتدي على أضوائه.

هذا الإيمان لما فاح شذاه وتنسمت الأرواح أريجه الساحر جدد بيننا عهد خديجة وسمية والخنساء رضي الله عنهن بنساء يشرف المسلمون إلى يوم القيامة بعطائهن وجهادهن، ويسعد كل حر ومناضل شريف بصنيعهن، وينزوي ويخزى كل جبان تافه أمام

سيرتهن السامقة الباهرة.. وإليك الآن صورًا تريك ما لو لم يَرْوِه الواقع ونراه حقائق لعده الناس من المعجزات والخوارق:

ونبدأ هذه الصور التي أشرقت شموسًا في سماء فلسطين بالفتاة التي اختارت يوم عرسها بنفسها، واختارت أن تستبدل بالفستان الأبيض شيئًا آخر، والأعجب أنها قررت أن تجعل هذه الحفلة عامة يشهدها كل فلسطيني وعربي ومسلم في أنحاء العالم دون غيرهم؛ لتدخل البهجة والسرور عليهم من دون جميع سكان كوكبنا الأرضي، وذلك حين يرون أو حتى يسمعوا باحتفالها المبتكر، إنها الشهيدة الطالبة «آيات الأخرس» منفذة عملية «نتانيا» في قلب الكيان الصهيوني، في واحدة من أبرز وأنجح العمليات البطولية التي نفذتها المقاومة الفلسطينية الباسلة.

والشهيدة «آيات الأخرس» نشأت في أسرة مكونة من اثني عشر فردًا، وكانت الرابعة بين أخواتها السبع وإخوانها الثلاثة، وقبل تنفيذ العملية كانت طالبة في الصف الثالث الثانوي وقد عُرفت بتفوقها الدراسي حيث حصلت على تقدير امتياز في الفصل الأول من عامها الدراسي الأخير، إذ برغم معرفتها بموعد استشهادها فإنها واصلت مذاكرة دروسها، وذهبت إلى مدرستها لتحضر آخر درس تعليمي؛ لتؤكد لزميلاتها أهمية العلم، ورغبة في التمويه على أقرب الناس إليها بصدد عزمها على تنفيذ عمليتها البطولية.

بفستان الشهادة تحضر الفرح:

وبينما كانت عائلة «آيات» تستعد لحفل زفافها المنتظر بعد أشهر قليلة على خطيبها «شادي أبو لبن»، والجميع ينتظر أن يراها في فستان الزفاف الأبيض، أبت آيات إلا أن تُزفَّ باللون الأحمر القاني؛ لتروي بدمائها الغالية شجرة الشهداء، وتضحي بنفسها فداء للقدس، وطلباً لمنازل الشهداء في فراديس الجنان.

أهازيج وزغاريد في بيت آيات:

بعد أن نفذت آيات الأخرس عمليتها بنجاح، ونالت شرف الشهادة دون أن تتعثر أو تتردد، وأضحت نموذجًا لنضال المرأة المسلمة في خدمة قضايا شعبها وأمتها، سارعت إحدى الصحفيات إلى منزل آيات لتسمع تفاصيل قصة الطالبة آيات التي هزت مشاعر فلسطين والعالمين العربي والإسلامي بشجاعتها الفذة، فتقول هذه الصحفية في مقال لها بعنوان: «آيات الأخرس.. عروس بفستان الشهادة».

قالت: وفي بيت متواضع في مخيم الدهيشة أقيم عزاء الشهيدة آيات الأخرس، أعتقدت أن أسمع صوت العويل والصراخ على العروس التي لم تكتمل فرحتها، ولكني فوجئت بصوت الزغاريد والأناشيد تطرب له الآذان على بُعد أمتار من المنزل، ووالدة الشهيدة الصابرة المحتسبة تستقبل المهنئات لها، وبصعوبة استطعت أن

أفوز بالحديث معها لتصف لي صباح آخر يوم خرجت فيه «آيات» من المنزل، فقالت الأم: استيقظت آيات مبكرة، وصلّت صلاة الصبح، وجلست تقرأ ما تيسر لها من كتاب الله، وارتدت ملابسها المدرسية، وأخبرتني أنها ذاهبة للمدرسة لتحضر ما فاتها من دروس، فاستوقفتها؛ فاليوم الجمعة عطلة في جميع المدارس! ولكنها أخبرتني أنه أهم أيام حياتها، فدعوت الله أن يوفقها ويرضى عنها.

الجملة التي أسعدت ابنتي:

وتكمل الأم: وما كدت أكمل هذه الجملة حتى لاحظت بريق عينيها وكأني دفعت بها الأمل إلى قلبها، ووهبتها النجاح في هذه الكلمات، فنظرت إليّ بابتسامتها المشرقة، وقالت: هذا كل ما أريده منك يا أمي. وخرجتْ مسرعة تصاحبها شقيقتها سماح.

وتضيف هيفاء -زميلتها في مقعد الدراسة- والتي ما زالت ترفض أن تصدق خبر استشهاد آيات: منذ أسبوع تحتفظ آيات بكافة صور الشهداء في مقعدها الدراسي الذي كتبت عليه شعارات تبين فضل الشهادة والشهداء، ولكن لم يدُر بخلدي أنها تنوي أن تلحق بهم؛ فهي حريصة على تجميع صور الشهداء منذ مطلع الانتفاضة، وهي أشد حرصًا على أن تحصد أعلى الدرجات في المدرسة.

وتستطرد والدة آيات بعد أن سقطت دمعة من عينها: وعادت شقيقتها سماح مع تمام الساعة العاشرة بدونها، فخفت وبدأت

دقات قلبي تتصارع؛ فالأوضاع الأمنية صعبة جدًا، والمخيم يمكن أن يتعرض للاقتحام في أي لحظة، وغرقت في هاجس الخوف ووابل الأسئلة التي لا تنتهي: أين ذهبت؟ وهل يعقل أن تكون قد نفذت ما تحلم به من الاستشهاد؟ ولكن كيف؟ وخطيبها؟ وملابس الفرح التي أعدتها؟ وأحلامها؟...

وبينما الأم في صراعها بين صوت عقلها الذي ينفي، ودقات قلبها التي تؤكد قيامها بعملية استشهادية، وإذ بوسائل الإعلام تعلن عن تنفيذ عملية استشهادية في «نتانيا»، وأن منفذها فتاة، وتضيف الأم وقد اختنقت عبراتها بدموعها: فأيقنت أن آيات ذهبت ولن تعود، وأصبحت عروس فلسطين؛ فقد كانت مصممة على أن تنتقم لكل من «عيسى فرح» و«سائد عيد» اللذين استشهدا إثر قصف صاروخي لمنزلهما المجاور لنا.

صناعة الموت:

وتكمل الصحفية:ومن خلال الحديث مع الأم وزميلات آيات أدركتُ أنها كانت حريصة على أن تحتفظ بكافة أسماء الشهداء، وخاصة الاستشهاديين الذين كانت تحلم بأن تصبح مثلهم، ولكن طبيعتها الأنثوية كانت أكبر عائق أمامها، فقضت أيامها شاردة الذهن غارقة في أحلام الشهادة، حتى نجحت الشهيدة وفاء إدريس بتنفيذ أول عملية استشهادية تنفذها فتاة فلسطينية، فزادت رغبتها في

تعقب خُطا الاستشهاديين والاستشهاديات، وحطمت كافة القيود الأمنية، واستطاعت أن تصل إلى قادة العمل العسكري، ليتم تجنيدها في كتائب «شهداء الأقصى» على الرغم من رفضها السابق اتباع أي تنظيم سياسي أو المشاركة في الأنشطة الطلابية.

وأكدت والدة «آيات الأخرس» أنها كانت تجاهد نفسها لتغطي حقيقة رغبتها بالشهادة التي لا تملّ الحديث عنها، وكان من أقوالها: «ما فائدة الحياة إذا كان الموت يلاحقنا من كل جانب؟ سنذهب له قبل أن يأتينا، ونتتقم لأنفسنا قبل أن نموت».

النور يتلألأ في وجهها:

أما شقيقتها سماح وهي صديقتها المقربة، وحافظة سرها، فقد فقدت وعيها فور سماعها نبأ استشهاد شقيقتها «آيات» رغم علمها المسبق بنيتها تنفيذ عمليتها البطولية، وتصف لنا لحظات وداعها الأخير لها فتقول بصوت مخنوق بدموعها الحبيسة: رأيت النور يتلألأ في وجهها ويتهلل فرحًا لم أعهده من قبل، وهي تعطيني بعض حبات الشوكولاته، وتقول لي بصوت حنون: صلّي واسألي الله لي التوفيق. وقبل أن أسألها: على ماذا؟ قالت لي: اليوم ستبشرين بأحلى بشارة؛ فاليوم أحلى أيام عمري حيث انتظرته طويلاً، هل تودين أن أسلم لك على أحد؟ فرددت عليها باستهزاء: سلّمي لي على الشهيد محمود والشهيد سائد. لأني على يقين أنها لن تجرؤ

على تنفيذ عملية بطولية، ثم سلمت عليّ سلامًا حارًا وغادرتني بسرعة لتذهب إلى فصلها.

وسكتت سماح برهة لتمسح دموعها التي أبت إلا أن تشاطرها أحزانها، وتابعت تقول: شعرت أن نظراتها غير طبيعية، وكأنها تودع كل ما حولها، لكني كنت أكذب أحاسيسي، فأي جرأة ستمتلكها لكي تنفذ عملية استشهادية؟ ومن سيجندها، وهي ترفض الانضمام إلى منظمة الشبيبة الطلابية؟ وأكملت قائلة: هنيئًا لها الشهادة؛ فهي تستحقها لجرأتها، وأعاهدها أن أمشيْ على طريق الشهادة؛ فجميعنا مشروع شهادة.

عروستي لغيري:

أما «شادي أبو لبن» زوج آيات المنتظر، فقد علمت أنه قبل أيام قليلة من استشهادها كانا يحلقان معًا في فضاء أحلام حياتهما الزوجية وبيت الزوجية بعد انتهائها من امتحانات الثانوية العامة، وكاد صبرهما الذي مرّ عليه أكثر من عام ونصف أن ينفد، لقد حلما بالمولود الأول الذي اتفقا على تسميته «عدي»، واتفقا أن يربياه ليصبح بطلاً يحرر الأقصى من قيد الاحتلال.

فجأة ودون مقدمات سقط شادي من فضاء حلمه؛ ففتاة أحلامه زُفّت إلى غيره، وأصبحت عروس فلسطين، بعدما فجرت نفسها في قلب العدو الصهيوني.

خطّطنا وخطّط الله:

وما كدت أسأل شادي عن خطيبته آيات حتى سقطت دموع عينيه الحبيسة، وقال بعبارات امتزجت بالشجن: خططنا أن يتم الفرح بعد إنهائها لامتحانات الثانوية العامة هذا العام، لكن يبدو أن الله تعالى خطط لنا شيئًا آخر، لعلنا نلتقي في الجنة، كما كتبت لي في رسالتها الأخيرة.

وصمت شادي قليلاً ثم قال: كانت أحب إليّ من نفسي، عرفتها قوية الشخصية والعزيمة، تعشق الوطن، محبة للحياة، تحلم بالأمان لأطفالها؛ لذلك كان كثيرًا ما يقلقها العدوان الصهيوني. وأردف قائلاً: كلما حلمتْ بالمستقبل قطع حلمها الاستشهاد؛ فتسرقني من أحلام الزوجية إلى التحليق في العمليات الاستشهادية، ودمائنا التي سنُزفُّ بها معا إلى الجنة؛ فنتواعد بتنفيذها معًا.

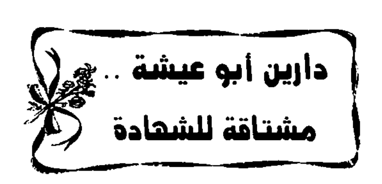
واستطرد شادي- وقد أشرقت ابتسامة على وجهه المفعم بالحزن- فقال: لقد كانت في زيارتي الأخيرة أكثر إلحاحًا عليّ أن أبقى بجوارها، وكلما هممت بالمغادرة كانت تطلب مني أن أبقى ولا أذهب، وكأنها تودعني، أو بالأحرى تريد لعيني أن تكتحل للمرة الأخيرة بنظراتها المشبعة بالحب لتبقى آخر عهدي بها.

لينقلب السحر على الساحر:

ويرغم أن شادي حاول جاهدًا أن يظهر الصبر والجلد على فراق آيات، فقد بكى وهو يبوح لنا بأمنيته الغالية:كنت أتمنى أن أرافقها بطولتها، ونُستشهد معا.. فهنيئًا لها الشهادة، وأسأل الله أن يلحقني بها قريبًا.. قريبًا.

و هكذا ستبقى عروس فلسطين «آيات الأخرس» مثلاً وقدوة لكل فتاة وشاب فلسطيني يرغب في آفاق رحبة من الكرامة والعزة والنعيم المنتظر؛ لينقلب السحر على الساحر، وتصير فلسطين أضيق زنزانة يمكن أن تعيش فيها عصبة صهيون الأوغاد.

* * *



«لم تكن دارين بالإنسانة العادية؛ فقد كانت شعلة من النشاط داخل الكتلة الإسلامية بجامعة النجاح، ملتزمة بدينها وعلى خلق عالٍ». بهذه الكلمات وصفت ابتسام أخت الاستشهادية الثالثة من النساء الفلسطينيات في مقاومة الاحتلال الصهيوني البغيض، وهي دارين محمد توفيق أبو عيشة، تبلغ دارين من العمر ٢٢ عامًا، تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة النجاح الوطنية ولم يتبقّ على تخرّجها سوى فصل دراسي واحد، تسكن مع أسرتها بقرية بيت وزن قضاء مدينة نابلس شمال الضفة الغربية.

اشتياق للشهادة:

تتمتع دارين بحس مرهف ومشاعر فياضة، تشعر بالآخرين، تفرح لفرحهم وتتألم لألمهم، فكان يحزنها أشد الحزن ويؤلمها أشد الألم ما يتعرض له جيرانها وكل أهلها من أبناء فلسطين من قمع وبطش واعتداءات من بني صهيون الغاصبين، فكانت كثيرًا ما تحدث نفسها بأن عليها أن تفعل شيئًا حتى ترد هؤلاء الغاصبين، حتى ملك عليها هذا الأمر نفسها، وأصبحت الشهادة في سبيل الله أمنيتها التي

تسعى إليها وتدعو الله أن يرزقها إياها، فهذا شقيقها يذكر أنها قالت له في يوم وقفة عرفة حيث كانت صائمة وتستعد لتناول طعام الإفطار: إن الدعوة إلى الله مستجابة في هذا اليوم الفضيل. ثم رفعت يدها متوجهة إلى الله تعالى بالدعاء قائلة: ربنا تقبلنا شهداء.

وانشغالها بالسعي لنيل الشهادة لم يقتصر على الدعاء فقط، بل تحركت لذلك حتى إنها توجهت ذات مرة إلى جمال منصور القيادي بحركة المقاومة الإسلامية حماس الذي اغتالته قوات الاحتلال الصهيوني في أغسطس ٢٠٠١، وطلبت منه الانضمام إلى الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس، وأعربت عن عزمها القيام بعملية استشهادية ، فقال لها الشهيد جمال: عندما ينتهي الرجال من عندنا سنستعين بكُنّ للقيام بالعمليات الاستشهادية[1] .

تحقيق للأمنية:

لم يقنع هذا الكلام دارين - كما تقول شقيقتها- ولم ينقطع حديثها عن الشهداء والشهادة، وكانت كثيرة المشاركة في تشييع جثامين الشهداء والمشاركة في المسيرات، حتى وجدت ضالتها في

(١) ويرجع المحللون المقربون من حماس سبب رد الشهيد الشيخ جمال أنه ليس مرتبطا بالجهاز العسكري لحماس ككل أعضاء المكتب السياسي للحركة كما أن مثل هذه الأعمال يختص بها ذاك الجهاز وهو المعني بتجنيد الاستشهاديين وليس موقفًا سياسيًا أو دينيًا من تجنيد استشهاديات.

كتائب شهداء الأقصى التي لبت رغبتها وقامت بإعدادها للاستشهاد.

وفي يوم الأربعاء ٢٧-٢-٢٠٠٢ استقلت دارين سيارة من طراز «سوبارو»، حيث توجهت السيارة نحو «مكبيم» بجوار القدس، ولكن الجنود الإسرائيليين عند الحاجز القريب من هذه البلدة أمروا سائق السيارة بالتوقف والخروج منها لفحص السيارة واتخاذ غير ذلك من الإجراءات الأمنية، وهمت دارين بالنزول من السيارة، فما إن وضعت قدمها على الأرض حتى حدث انفجار هائل مدوٍ أدى إلى إصابة ثلاثة من اليهود الغاصبين؛ ليلقى الرعب في قلب كل غاصب متغطرس من المحتلين؛ ولتنال هي بذلك- بمشيئة الله- رضوان الله في جنات النعيم.

وصيتها لمن خلفها من النساء:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المجاهدين سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم أما بعد:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

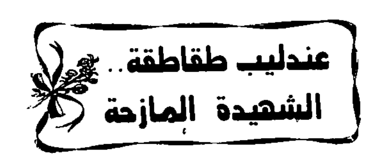
ولأن دور المرأة المسلمة الفلسطينية لا يقل في شأنه مكانة عن دور إخواننا المجاهدين، قررت أن أكون ثاني استشهادية تُكمل الدرب والطريق الذي بدأت به الشهيدة وفاء الإدريسي فأهب نفسي رخيصة في سبيل الله سبحانه وتعالى انتقامًا لأشلاء إخواننا الشهداء، وانتقامًا لحرمة ديننا ومساجدنا، وانتقامًا لحرمة المسجد الأقصى وبيوت الله التي حولت إلى بارات يُمَارسُ فيها ما حرّم الله نكايةً في ديننا وإهانةً لرسالةِ نبينا.

ولأن الجسد والروح كل ما نملك، فإني أهبه في سبيل الله؛ لنكون قنابل تحرق الصهاينة، وتدمر أسطورة شعب الله المختار، ولأن المرأة المسلمة الفلسطينية كانت وما زالت تحتفظ بمكان الصدارة في مسيرة الجهاد ضد الظلم، فإني أدعو جميع أخواتي للمضي على هذا الدرب، ولأن هذا الدرب درب جميع الأحرار والشرفاء، فإني أدعو كل من يحتفظ بشيء من ماء وجه العزة والشرف، للمضي في هذا الطريق، لكي يعلم كل جبابرة الصهاينة أنهم لا يساوون شيئًا أمام عظمة وعزة إصرارنا وجهادنا، وليعلم الجبان شارون أن كل امرأة فلسطينية ستنجب جيشًا من الاستشهاديين وإن حاول وأدَهم في بطون أمهاتهم على حواجز الموت، وأن دور المرأة الفلسطينية لم يعد مقتصرًا على بكاء الزوج

والأخ والأب، بل أننا سنتحول بأجسادنا إلى قنابل بشرية تنتشر هنا وهناك؛ لتدمر وهْم الأمن للشعب (الإسرائيلي)، وفي الختام أتوجه إلى كل مسلم ومناضل عشق الحرية والشهادة أن يبقى على هذا الدرب المشرف، درب الشهادة والحرية.

ابنتكم الشهيدة الحية : دارين محمد توفيق أبو عيشة





صنعت عندليب الشاي لوالدتها في الصباح وأخبرتها أن أناساً سيأتون لخطبتها، وأوصتها أن تحسن استقبالهم، وحين سألتها أمها عن عائلة هذا الخطيب قالت: عندما يأتون ستعرفينهم وتفرحين بهم؛ لأنهم سيحققون أمنيتي.

كانت هذه آخر الكلمات التي حادثت بها عندليب أمها قبل أن تخرج لتنفيذ عمليتها الفدائية في القدس الغربية يوم الجمعة الموافق ١٢-٤-٢٠٠٢م، والتي أسفرت عن مقتل ٦ إسرائيليين وإصابة ٨٥ في نجاح منقطع النظير.

العجيب أن عندليب كان قد بقي على عيد ميلادها العشرين يومان، فلم تنتظر لتحتفل به مع أسرتها وآثرت التعجيل بتنفيذ العملية؛ رغبة في الاحتفال به مع كل من سبقها من الشهداء في بلاد الأفراح في جنان الخلد.

تقول عنها شقيقتها عبير:كانت تحلم بأكبر من الزواج والإنجاب.. تحلم بالانتقام من جيش الاحتلال لجرائمه في جنين ونابلس..

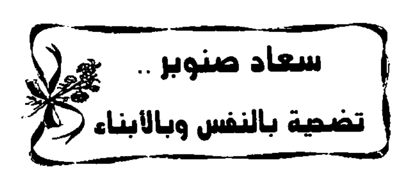
أما عن قدرتها على إخفاء أسرار قياداتها فيقول أخوها محمد: لم

يسبق لها أن تحدثت عن السياسة أو تنظيمات المقاومة الفلسطينية، ولكنها كانت تكره الاحتلال وجرائمه.. ويضيف قائلاً: قضت معظم ساعات الليلة التي سبقت استشهادها معنا، وتبادلنا أطراف الحديث والابتسامة تعلو شفتيها، ولم نشعر للحظة واحدة أنها ستفارقنا.

كانت عندليب قبل تنفيذ عمليتها تعمل في مصنع للنسيج في «بيت لحم»، لتشارك في إعالة أسرتها الكبيرة المكونة من ثمانية إخوة أكبرهم مريض بمرض مزمن.

بهذه الروح الشاعرة بالمسئولية تجاه أسرتها الصغيرة، وبفداحة الظلم الواقع على أسرتها الكبيرة فلسطين، وببشاعة المحتل في جرائمه المتوالية والمتصاعدة، وبثقتها في أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن الجهاد أفضل القربات إلى الله، نفذت عندليب عمليتها دون أن تتعثر في أذيال صغر سنها أو أنوثتها، وقدمت روحها قربانًا إلى الله ليقبلها في الشهداء.

* * *



سعاد صنوبر .. تضحية بالنفس وبالأبناء

عندما يسمع الإنسان سيرة حياتها يدرك تمامًا أنّه يقف أمام واحدةٍ من أحفاد الصحابيات المجاهدات أمثال الخنساء ونسيبة المازنية .. فقد عاشت سني حياتها الست والأربعين مجاهدة مؤمنة صابرة .. ربّت أبناءها على حبّ الدين والوطن والجهاد .. وزرعت في نفوسهم مفاهيم العزة والكرامة .. فأنبت جهدها ثمرة طيبة .. وآتى زرعها أُكُله أحيانًا كثيرة .. فكان ابنها الشهيد المجاهد أحمد الذي سبقها بثلاثة أشهر إلى جنان الخلد بعد أنْ أذاق العدو ألوان العذاب.

وُلدت الشهيدة المجاهدة سعاد صنوبر في مدينة نابلس بتاريخ ٢٤-٤-١٩٥٦، ونشأت في بيت علمٍ ودين، وعُرِفت بذكائها الوقّاد .. وقد أكملت دراستها لتحصل على شهادة الدبلوم في المحاسبة.

تزوّجت عام ١٩٧٨ من السيد الفاضل «محمود خليل جود الله».. ورزقت بخمسة أبناء .. فكانت مثالاً للزوجة الصالحة ..

وقد كابدت أمّ محمد هي وزوجها ظروف المعيشة الصعبة، وضحّت بكلّ ما تملك من جهدٍ ومالٍ ومَصاغٍ من أجل بناء بيتٍ مستقلّ لهما ولأبنائهما، وليؤمّنوا لهم مستقبلاً واعدًا .

لم تكنْ الشهيدة سعاد أمًّا لأبنائها الخمسة فحسب .. بل إنّ الشهداء والمجاهدين كانوا يعتبرونها أمًّا لهم .. إذ كانت تعدّ لهم الطعام، وتودّعهم بالدموع وبالدعاء قبل كلّ عملية كانوا ينطلقون لتنفيذها ضدّ العدو الغاصب .. فنالت بذلك لقب «أم الشهداء» .

صبر وثبات:

كان أحمد أعزّ أبناء الشهيدة سعاد على نفسها وأقربهم إلى قلبها لما كان يغمرها ببرّه وحنانه وعطفه .. ولما كان يتمتّع به من جراْةٍ وشجاعة بالغة .. وكان يقول لها دائمًا إنه لن يمكث في هذه الدنيا طويلاً، فتجيبه الأم المؤمنة المجاهدة : يا بنيّ .. إنّي قد وهبتك لله تعالى .. وكانت توصيه قائلة : بالله عليك يا أحمد لا تمت إلا ميتة مشرفة ترفع الرأس، لا أريد أن أسمع أنك استشهدت أثناء تحضير عبوة ناسفة أو بعيارٍ طائش، أريدك أن تستشهد وأنت تواجه المحتلين.

وبفضل تشجيعها لابنها أحمد فقد تمكّن من قتل ما مجموعه سبعة جنود صهاينة وجرح العشرات في أقلّ من عامين من عمر انتفاضة الأقصى.

وفي ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٢ قامت وحدة خاصة في جيش الاحتلال باغتيال الشهيد أحمد ورفيق دربه الشهيد علاء مفلح بعد يومٍ حافل بالعمليات الجهادية ضدّ المحتلين.

في هذه الأثناء علمت الشهيدة أم محمد عبر وسائل الإعلام بخبر استشهاد صديق ابنها علاء في عملية اغتيال مدبرة ، فأدركت أنّ ابنها أحمد قد أصيب أو اعتقل على الأقلّ .. هذا إذا لم يستشهد هو الآخر.

وتبكي الأم بكاءً حارًا .. فقد كان علاء بمثابة ابنها .. ولم تعلم أنّ ابنها هو الآخر قد استشهد إلا بعد مرور بعض الوقت .. لتفجع باثنين من أبنائها .. أحمد وعلاء . فحزنت الوالدة الحنون حزنًا شديدًا على فراق فلذة كبدها، وكانت تقول لأبنائها بعد استشهاده : لقد ذهب الغالي. غير أنّ الأم المؤمنة المجاهدة صبرت واحتسبت ذلك عند الله تعالى.

موعد مع الشهادة:

ولكن المجاهدة الصابرة لم تكتفِ بحثّ أبنائها على بذل الرخيص والغالي في سبيل الله للدافع عن الوطن والعرض، ولكنها أصرت على أن يكون لها دور مباشر في ذلك، فها هي-رغم سنها الكبير- تتوجه مع ابنها عبد الله والشهيد القسامي أيمن الحناوي رفيق درب ابنها أحمد نحو موقع للجيش الإسرائيلي، وبالتحديد على طريق مؤدٍّ إلى مستوطنة «شافيه شومرون» شمال نابلس، ويهاجمون هذا الموقع بإطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية، ولكن تشاء إرادة الله أن تقع هي ومن معها هدفًا لكمينٍ نصبه لهم جنود الاحتلال، فتستشهد هي

وأيمن الحناوي؛ لتلحق بحبيب قلبها أحمد بعد ثلاثة أشهر من استشهاده وبصحبة صديقه ورفيق دربه في الجهاد والمقاومة.

وينقل جثمانها الطاهر إلى جوار ابنها الشهيد أحمد وقد بدت عليها ابتسامة الفرح بلقائه، وترفع أصبعها بعلامة التشهد، لتكون في جواره جسدًا، وإلى جانبه روحًا في جنات النعيم بعد أن ضربت أروع المثل في الصبر والفداء والثبات على الحق.



هبة دراغمة.. تنجز الحلم الجميل

«فشل الأخ في تحقيق حلم الشهادة، لكن الأخت استطاعت فعل هذا».. بهذه الكلمات علقت ميساء الطوباسي جارة الاستشهادية هبة عازم أبو خضير دراغمة على العملية الاستشهادية التي نفذتها هبة عصر الاثنين ١٩-٥-٢٠٠٣ في العفولة شمال إسرائيل، لتصبح بذلك الفتاة الخامسة التي تنفذ عملية استشهادية خلال انتفاضة الأقصى التي بدأت في سبتمبر ٢٠٠٠.

تبلغ هبة من العمر ١٩ عامًا، أنهت دراستها الثانوية بتفوّق، فالتحقت بقسم الأدب الإنجليزي في جامعة القدس المفتوحة، فهي طالبة بالفرقة الأولى، تسكن في قرية طوباس التابعة إداريًا لمدينة جنين، وتنتمي لأسرة فلسطينية بسيطة الحال، تتكون من عشرة أفراد: هي وثلاث أخوات متزوجات، وأربعة أشقاء ذكور، وأمها ووالدها العامل البسيط الذي أفنى حياته لتوفير حياة هانئة لأبنائه.

متفوقة في كل شيء :

يؤكد أقارب هبة أنها تتسم بالهدوء والسكينة، وأنها منذ نعومة أظفارها كانت متميّزة في كلّ شيء .. علاقاتها مع والديها كانت

قائمة على المحبة والاحترام المتبادل إذ كانت بارّة بهما .. طائعة لربّها متدينة، التزمت الصلاة والعبادة في وقتٍ مبكّر من عمرها، وارتدت الزيّ الإسلامي الكامل وتوجته بالنقاب، تحب العمل التطوعي والخيري في مساعدة أسر المجاهدين والأسرى الفلسطينيين.

كانت تقضي جلّ أوقاتها في القراءة وتلاوة القرآن ومطالعة الكتب الدينية والإسلامية، وتشهد لها زميلاتها في الدراسة أنها تميّزت بخلقها الحسن وطيب المعشر وحبّ الوطن وبغضها للعدو الغاصب، فكانت صادقة في انتمائها لوطنها الذي أحبته، تتألّم لألم شعبها وتحزن لسماع أخبار جرائم المحتلين.

وتقول عنها صديقاتها: إنها كانت متواضعة بسيطة ومثقفة، لم تكنْ تهتم كثيرًا بمباهج الدنيا ومتاعها الزائل، بل كانت مؤمنة صابرة تتمنّى أن يتخلّص شعبها من نير الاحتلال، وكثيرًا ما كانت تتحدّث عن الشهادة والشهداء، ومع ذلك فإنها كانت قليلة الكلام تحتفظ بأسرارها لنفسها ولا تبوح بها لأيّ إنسان.

على الدرب تسير:

وكان شقيقها الأكبر بكر الذي يبلغ من العمر ٢٠ عامًا يحلم أن يقوم بعملية استشهادية يرد بها على بعض مما ارتكبته القوات الصهيونية في حق أبناء الشعب الفلسطيني من جرائم واعتداءات، ولكن قبل أن ينفذ حلمه هاجمته القوات الصهيونية وأصابته ثم اعتقلته.

ولكن يبدو أن هبة تبنّت حلم أخيها الذي لم تسمح له الظروف ليحققه، ففي يوم الاثنين ١٩- ٥-٢٠٠٣ وعلى غير عادتها ارتدت هبة بنطلون جينز وبلوزة وصندلاً عاديًا تحت جلبابها، وتذرّعت بأنها ذاهبة لزيارة صديقاتها، وقطعت باقة زهور من حديقة منزلها وغادرت البيت ظهرًا ولم يرَها أحد بعد ذلك في بلدتها طوباس.

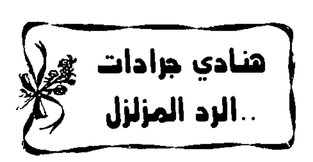
نعم .. لقد كانت ذاهبة لزيارة صديقاتها دارين أبو عيشة وآيات الأخرس وعندليب طقاطقة .. ولكن ليس في هذه الدنيا الفانية، وإنما هناك بصحبة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

شقّت طريقها عابرة الحواجز ومخترقة كلّ الاستحكامات الأمنية الصهيونية -رغم الإغلاق الكامل الذي تفرضه سلطات الاحتلال على المدن الفلسطينية- باتجاه مدينة العفولة المحتلة عام ١٩٤٨، واتجهت صوب أحد المجمّعات التجارية الصهيونية الكبرى في المدينة، وأمام هذا المجمع التجاري كان الحراس يدققون في وجوه كلّ من يحاول الدخول، وكان الخوف والهلع قد أصابهم من جرّاء أربع عمليات جهادية وقعت خلال أقل من ٤٨ ساعة وأوقعت عشرات القتلى والجرحى الصهاينة.

أحد الحراس الصهاينة شكّ في أمرها وأراد أن يتحقّق من هويّتها ويفتش حقيبتها، ولكنها لم تمهله حتى يتحقق من هويتها، فما

إن اقترب منها حتى سارعت بالضغط على زر التفجير محدثة انفجارًا هائلاً ودويًا كبيرًا، أسفر عن مصرع أكثر من ثلاثة صهاينة وإصابة ٤٥ بينهم أربعة في حالة خطرة؛ لتنجز الحلم الذي داعب خيالها وخيال أخيها من قبل، ولتكتب اسمها في سجل الفخر والشرف، ولتلحق بمن سبقها من الشهداء والشهيدات في أعلى عليين عند مليك مقتدر.





في صباح يوم ٤/ ١٠/ ٢٠٠٣ خرجت من جنين متوجهة إلى حيفا، ورغم الإغلاق الكامل الذي تفرضه القوات الصهيونية على الأراضي الفلسطينية بمناسبة يوم الغفران إلا أنها استطاعت أن تصل إلى مطعم «مكسيم» الواقع على المدخل الجنوبي لمدينة حيفا، وفي منتصف المطعم جلست هادئة النفس مطمئنة القلب، فتناولت طعامها وحمدت الله تعالى، ثم تمتمت بالشهادتين وأطلقت صيحة التكبير«الله أكبر» ليدوي انفجار هائل في أرجاء المكان المكتظ بالصهاينة الغاصبين يسفر عن مقتل ٢٢ صهيونيًّا وإصابة ما يزيد عن ٥٠، منفذة بذلك أكبر عملية استشهادية في عام ٢٠٠٣، ولتكون الاستشهادية السادسة منذ بدء الانتفاضة.

إنها الشهيدة هنادي تيسير جرادات، أخت الشهيد البطل فادي جرادات الذي اغتالته القوات الصهيونية مع ابن عمها الشهيد صالح جرادات.

ولدت هنادي في ٢٢-٩- ١٩٧٥ في حي الدبوس الذي يقع على تلة مرتفعة تطل على وادي عز الدين القسام بمدينة جنين،

عاشت وسط عائلة ذات إمكانات مادية محدودة تضم ٧ بنات وولدين، يسكنون منزلاً بسيطًا، لكن ضيق الحال لم يُثنِ هنادي عن أن تكمل دراستها، فالتحقت بجامعة جرش بالأردن، ودرست بكلية الحقوق وتخرجت عام ١٩٩٩، وكانت هنادي على صلة وثيقة بكتائب سرايا القدس (الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي).

ردّ على جرائم الصهاينة:

كانت نفسها ممتلئة بالضيق والضجر من جرائم الصهاينة البشعة واعتداءاتهم الآثمة التي يرتكبونها كل يوم في حق الشعب الفلسطيني، ومما زاد من ضيقها وإصرارها على رد اعتداءاتهم ما رأته بأم عينها من قتلٍ لشقيقها وابن عمها، وكانت هذه الجريمة في مساء يوم الخميس ١٣/٦/٢٠٠٣ حيث حضرت زوجة ابن عمها المجاهد صالح جرادات، وهو من قادة سرايا القدس التابعة لحركة الجهاد الإسلامي، للاطمئنان على زوجها في بيت عمه بعيدًا عن مطاردة القوات الصهيونية له، ولكي يرى ابنه الذي لم يره إلا مرات معدودة.

وبعد أن جلس ابن عمها يداعب طفله ويطمئن على أحوال زوجته جاءت سيارة بيضاء اللون وخرج منها شخصان وأطلقوا النار عليه، وبلمح البصر حضرت سيارة أخرى تحمل لوحة أرقام

عربية وانضمت لإطلاق النار!، وتقول هنادي: ارتمينا أرضًا، وحملت زوجة صالح الطفل وهربت داخل البيت، أما أخي فادي فوقع أرضًا، شاهدته ينزف فأمسكت بيده وبدأت أسحبه خلف الكنبة التي كنا نجلس عليها لنتقي الرصاص وبدأت أصرخ: فادي ... صالح، وسمعت فادي يتحدث بصعوبة: ساعديني أنقذيني، ثم هاجمنا أحد المسلحين وألقاني أرضًا وانتزع فادي مني وقال: ادخلي البيت وإلا سأقتلك.

وتقول: أجبروني على النوم على وجهي وشتموني، وقالوا: سنقتلك معهم، ووضعوا سلاحهم على رأسي، ثم قال أحدهم لمجموعة أخرى: اسحبهم وكوِّمهم. فثارت أعصابي ولم أتحمل، حاولت مقاومتهم فألقوني أرضًا، وسحبوهما عدة أمتار ثم أطلقوا النار عليهما ثانية.

لم تكتف قوات الاحتلال بجريمة القتل، بل أتت قوات إضافية إلى الموقع واحتجزت هنادي وعائلتها وانتشرت حول المنزل وقامت بتفتيشه ثم صادرت الجثمانين، ولدى تسليمهما تبيّن أنهما تعرضا لإطلاق نار في سائر أنحاء جسديهما.

فكانت عمليتها هذه ردًا يستحقه العدو الصهيوني على ما ارتكبه في حق أخيها وابن عمها، وما يرتكبه في حق كل أبناء فلسطين.

سأنام فقط بعد ختم القرآن:

وتصف شقيقتها فادية الليلة الأخيرة لهنادي في المنزل قبل استشهادها فتقول: إن والدها طلب من هنادي أن تخلد إلى النوم بعد أن سهرت كثيرًا على غير عادتها، فردت عليه قائلة: "سأنام فقط بعد أن أختم الجزء الأخير من القرآن الكريم". لقد قضت ليلتها تصلي وتقرأ القرآن.

هكذا بذلت نفسها رخيصة في سبيل الله تعالى لتنضم إلى قافلة الشهداء الذين يلقون الرعب - بجهادهم- في قلوب اليهود الغاصبين ويردون غروره وطغيانهم.

القدس ترنو بالفخار هنادي

قامت بحيفا بالعلاء تنادي

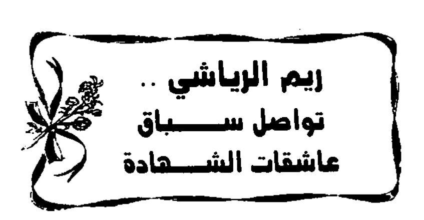
لا تجعلوهم ينعمون بأرضنا

فالقدس قدس الأهل والأولاد

طغت اليهود فمن يرد غرورهم

إلا هنادي في خطى الإرشاد

* * *



انفجار ضخم في شمال قطاع غزة يسفر عن مقتل أربعة جنود إسرائيليين، وإصابة عشرة آخرين من بينهم خبراء متفجرات تلقوا تدريبًا مكثفًا للحيلولة دون وقوع أي تفجيرات أو عمليات جديدة، ولكن هيهات.. إنها «ريم الرياشي» التي قال عنها الشيخ أحمد ياسين بعد تنفيذ عمليتها الاستشهادية الناجحة: هذه العملية تؤكد أن هناك تطورًا بارزًا في كتائب «عز الدين القسام» بأن تشارك امرأة في عملية استشهادية للمرة الأولى في عملية نوعية جديدة.

وأضاف بعد النجاح الساحق لهذه العملية، وما أثبتته من جدارة المسلمة العصرية، وكفاءتها المشهودة في الثبات في أحلك لحظات الصراع والمواجهة مع العدو، أضاف قائلاً: سيكون للمرأة دور بارز بالمعركة في المستقبل، لكن الوقت هو الذي يحدد هذه المسألة.

ريم تبحث عن الشهادة:

و«ريم»- عمرها اثنان وعشرون عامًا- هي زوجة وأم لطفلين، نشأت في بيت مسلم متدين لعائلة ميسورة الحال حيث كان والدها

تاجرًا، وأتمت «ريم» الثانوية العامة بتفوق، حيث كانت تأمل بالإكمال في كلية الهندسة إلا أن زواجها المبكر حال دون ذلك.

وكانت ريم تنتمي لكتائب القسام- الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية «حماس»- حيث وجدت أنها السبيل المتاح أمامها لتنفيذ أشواقها الدائمة إلى عمل يرضي الله عنها، ويقرب يوم تحرير المسجد الأقصى، وقبل أن تمضي لتنفيذ عمليتها سجلت نصيحة غالية، ووصية قيمة قالت فيها: «أيها الناس: أتحبون أن تعلموا ما للشهيد عند ربه؟ له سبع خصال، أولها: تغفر ذنوبه عند أول دفقة من دمه الطاهر، وثانيها: يجار من عذاب القبر، وثالثها: يؤمن من العذاب الأكبر يوم القيامة، ورابعها: يزوج من الحور العين، وخامسها: يلبس تاج الكرامة، وسادسها: يلبس تاج الوقار اللؤلؤة فيه خير من الدنيا وما فيها، أما سابعها فيرى مقعده من الجنة»[١].

دمائي.. سيري بي إلى الجنة:

أترون امرأة توصي بمثل هذا الحديث قد باعت نفسها رخيصة،

---

(١) تشير إلى حديث رسول الله ﷺ :«إن للشهيد عند الله سبع خصال : أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، يشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه». رواه أحمد والطبراني.وقال الألباني في صحيح الترهيب والترغيب: (صحيح).

أو ضحَّت دون ثمن، كلا والله.. إنها لفرط ثقتها في ربها، وعدالة قضيتها، وسمو هدفها كانت تقول: أتمنى أن تكون أشلاء جسدي شظايا تمزق بني صهيون.

وقالت على الشريط الذي سجلته قبل أن ترحل إلى ساحة المعركة وهى تخاطب عصابة الاحتلال الإسرائيلي: والله لو كسرتم عظامي، ولو جزأتم جسدي، ولو قطعتموني، فلن تستطيعوا أن تبدلوا ديني وتغيروا رايتي.. هذا هو لسان حالي، وكم قلت لنفسي: أيتها النفس، كِنّي للصهاينة أعداء ديني كل الحقد، واجعلي من دمائي طريقًا سيري فيه إلى الجنة!.

بمثل هذه العزيمة الصادقة، والشجاعة الفائقة، والثقة العالية، انطلقت ريم إلى تنفيذ العملية التي كانت صعبة للغاية نظرًا لخطورة المكان المستهدف، حيث يتواجد فيه مئات من جنود الاحتلال، لكنها كانت تعلم أن مخططي العملية درسوا كل شيء بعناية، وبذلوا وسعهم في التخطيط والتجهيز والإعداد فلم يبق إلا توفيق الله- قبل كل شيء- يسدد خطاها، ويثبتها حتى تنجح في تنفيذها.

خدعت الصهاينة بفكرة بسيطة:

ويصف لنا أحد قادة حركة حماس هذه العملية وملابساتها قائلاً: إن تنفيذ مثل هذه العملية يعتبر من الصعوبة بمكان؛ بسبب كونها منطقة عسكرية محكمة الإغلاق، إلا أن توفيق الله سبحانه ثم

التخطيط الدقيق المحكم كان له دور مهم في نجاح العملية..

ويتابع قائلاً: إن الاستشهادية ارتدت حزامًا ناسفًا ولفَّته حول ساقها ووسطها، وكانت تمشي على عكازين- للخداع والتمويه- وبذلك خدعتهم ونجحت في التحايل حتى لا تمر من الجهاز الإلكتروني المستخدم في تفتيش العمال والمسافرين، ونجحت بالفعل وتم تحويلها إلى غرفة تفتيش مركزية.

تُرى كيف كان حال ريم في هذه اللحظات مع اقتراب الهدف، وخطورة الموقف، واحتمال كشفها، ودنو لحظة الرحيل عن الأهل والزوج والأبناء والوطن؟ كيف سيطرت على مشاعرها، وعلى نبضات قلبها في هذا الموقف العصيب؟ لن نجد إجابة أو نقترب منها إلا إذا عدنا إلى الخلف قليلاً لنسأل: كيف ثبتت ماشطة فرعون وآسية وخديجة وسمية؟

إنه الإيمان الذي غذته ركعات الأسحار وقرآن الفجر، وسقاه اليقين بأحكم الحاكمين، وحركته الأشواق إلى روضات الجنان.

خبراء المتفجرات ينخدعون:

وتم استدعاء خبراء المتفجرات لتفتيشها.. ويضيف قائلاً: وفور نقلها إلى غرفة التفتيش وحضور خبراء المفرقعات من الجيش الإسرائيلي، فجرت نفسها لتوقع أربعة قتلى وتصيب أكثر من عشرة آخرين.

وبذلك تكون ريم أول استشهادية قسَّامية تفتح هذا الطريق أمام محبات الشهادة من عضوات حركة المقاومة الإسلامية حماس، وإن كانت قد سبقتها استشهاديات أُخر كوفاء إدريس خريجة الجامعة الأمريكية التي كانت أول من نفذ هجومًا استشهاديًا في انتفاضة الأقصى الأخيرة ضد لكيان الصهيوني.

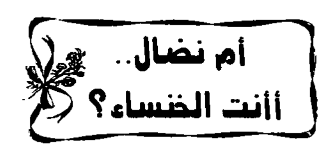
بكِ الفخر كللنا.. يا زوجتي:

ولكن ماذا كان رد فعل زوجها؟ لقد كان فخورًا جدًا وكان فيما قاله: ما قامت به زوجتي هو عمل يشرفنا، ويشرف الأمة الإسلامية، ويرفع رءوسنا، ورءوس الدول العربية والمسلمة.. الحمد لله رب العالمين، هذه كرامة من الله ﷻ.

ثم يتابع واصفًا حالها قبل تنفيذ العملية بأنها كانت كتومة جدًا، ولا تتحدث عن نيتها هذه لأحد.. وإنما كانت تكثر من الصيام وقراءة القرآن.

فلله درها من مجاهدة صابرة محتسبة، اختارت رضوان الله وجنته، ولم تثقلها قيود الزواج والأبناء عن تلبية نداء حلمها الكبير بالشهادة.

* * *



يخيل إليك أنها أتت من زمان غير زماننا، أو أن عاطفة الأمومة نُزعت من قلبها، وغُرس بدلاً منها حب المقاومة والوطن، كيف بها تطلب من ابنها إيواء مطارَدين لجيش الاحتلال في بيتها على الرغم من معرفتها أنها يمكن أن تفقد أولادها الستة لهذا السبب؟ وكيف تدفع بابنها «محمد» ليتسابق في نيل شرف مقاومة جيش الاحتلال، وتوصيه بالثبات حتى يلقى ربه شهيدًا؟!

تلك هي والدة الشهيد محمد فرحات الشهيرة بـ «أم نضال» وحقًّا كانت كذلك، كانت «أم نضال» والدة الشهيد «محمد» والمطارَد «نضال» والمعتقل «وسام» تجلس في هدوء – برغم المرض الذي أَلَمَّ بها– في غرفة الجلوس التي أفرغت من كافة محتوياتها استعدادًا للقصف على يد جيش الاحتلال؛ انتقامًا من قِبل قوات الاحتلال بسبب حجم الخسائر التي حلت بهم من العملية البطولية التي نفذها ابنها محمد - ابن التسعة عشر ربيعًا- في مستوطنة (أو بالأصح «مغتصبة» كما تسميها حماس) غوش قطيف، وهي العملية التي أدت إلى مقتل أحد عشر جنديًا

إسرائيليًّا وإصابة أكثر من سبعة عشر آخرين بجراح.

كانت السيدة «أم نضال» - في العقد الخامس من العمر- تتابع مع زائراتها مشاهد وداعها ابنها «محمد» على شاشة التلفاز المتصل بجهاز الفيديو والذي يعرض الشريط الذي سجله الاستشهادي «محمد» قبل رحيله لتنفيذ عمليته، حيث كانت تحضنه وتقبله بحنان قبل أن يفارقها وهي تعلم علم اليقين أنه لن يعود إليها، وسيغيب عنها طيلة حياتها، وخلال المشهد خيّم الهدوء على الجميع وكأن على رءوسهن الطير، يحاولن أن يمسحن دموعهن التي كانت تذرف على استحياء وخجل من «أم نضال»، التي كانت تبدو أكثر صبرًا وجَلدًا منهن، حتى إنها كانت تبتسم وهي تواسي من جاء لمواساتها.

قاوم ولا تفزع:

لقد سجلت «أم نضال» أروع الصور لجهاد المرأة الفلسطينية، بدفعها ابنها محمد للمشاركة في اقتحام مستوطنة صهيونية وقتل العشرات من مستوطنيها رغم صغر سنه، بعد أن نمّت الجرأة في قلبه وهي تقول له: أريدك أن تقاتل بالسلاح لا بالحجر. لذلك سرعان ما فكر في البحث عن عمل ليدخر منه ثمن السلاح الذي لا تستطيع هذه الأسرة أن توفره، وحثته أمه على العمل حتى يستطيع أن يمتلك السلاح، ويحافظ عليه لأنه عرف مدى صعوبة الحصول عليه. وتضيف «أم نضال»: كان من أجمل أيام حياتي عندما امتلك محمد

السلاح فأحضره لي ليسعد قلبي به، ويؤكد لي أنه أصبح رجلاً يمكن أن يسير في طريق الجهاد.

ليس ذلك فحسب - ويا لها من امرأة صلبة ملكت زمام الأمور بعد أن حددت الهدف لنفسها ولأولادها- بل كانت ترد بثبات وثقة على من يسألونها: ألم تترددي ولو قليلاً؟ فكان جوابها الحاضر وردها الحاسم دائمًا: كيف أمنع الخير عن ابني؟ لقد علمته من البداية أن يكون صادقًا معي، ولا يخفى عني سر جهاده حتى أشجعه وأقويه، ومع حلول شهر رمضان بشرني بالتحاقه بكتائب القسام، وأنه يستعد لخوض عملية استشهادية قريبًا.

وتضيف بقلب صابر محتسب: لا أنكر أني جزعت في البداية؛ لأنني أيقنت أني أعد الأيام الأخيرة لولدي الحبيب، ولكن ما كان يزيد من فزعي أن يفشل في المعركة، أو أن يتم القبض عليه قبل أن ينفذها، كما حدث مع أخيه وسام - الذي اعتقل قبل عشر سنوات، عندما كان يسعى لتنفيذ عملية استشهادية في مدينة بئر السبع عام ١٩٩٣- فدعوت الله أن يقبله عنده شهيدًا بعد أن يشفي صدور قوم مؤمنين.

لا تصدق دموعي:

وتضيف: ورغم ذلك نجحت بإيمان وعزيمة في كبح جماح مشاعر الأمومة بداخلي؛ فمن أراد طريق الله والفوز بالجنان فلا بد أن يدفع

أغلى ما يملك، وابني محمد أغلى ما أملكه، ولن أبخل به.

وتصف «أم نضال» الساعات الأخيرة قبل استشهاد ولدها فتقول: أخبرني بأن موعد تنفيذ العملية قد تحدد حتى لا أجزع عند سماع خبر استشهاده، ولم أستطع عندها أن أتمالك دموعي، وغلبتني عاطفة الأمومة، وبكيت أمامه، ولكني قلت له: إياك أن تصدق دموعي؛ فإنها دموع أمّ تزفُّ ابنها إلى الحور العين فأطع ربك، وجاهد، واثبت حتى تلقى ربك. ودّعته، وخرج إلى جنوب غزة بعد أن ودّع جميع إخوانه وقلبي يدعو له بالسداد، وكان هذا آخر عهدنا به.

وتضيف بنبرة حزينة: وبدأت أخوض الامتحان الحقيقي الذي هو صراع بين المبادئ وعاطفة الأمومة، ست ساعات كأنها دهر طويل أعد خلالها أنفاس أحب أبنائي إلى قلبي كأمٍّ تشاهد الموت البطيء لابنها، وقلبي يخفق حتى أوشك على التوقف لشدة خوفي أن يتم القبض عليه، وأخذت أدعو الله أن ينعم عليه بالشهادة ويسدد رميته، وجاء فرج الله بخبر نجاح العملية وفوزه بالجنان فهنأت نفسي وتنفست الصعداء.

بيت الحمائم:

هذه المرأة المناضلة التي جددت في القلوب والعقول ذكرى الخنساء الشاعرة التي استشهد بنوها الأربع في معركة القادسية

فقالت: «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم». لم تبدأ فصول مقارعتها للعدو الصهيوني بدفع ابنها «محمد» للجهاد، وإنما بدأت باستشعار أمومتها لأبناء الوطن المناضلين والمجاهدين، وكانت البداية في عام ١٩٩٢ حيث آوت في بيتها المتواضع المناضل الذي وصفه اليهود «بذي الأرواح السبعة».. إنه «عماد عقل» قائد الجناح العسكري لحركة «حماس» الذي قال عبارته المشهورة: «إن قتل اليهود عبادة أتقرب بها إلى الله». والذي استشهد في منزلها بعد أن تحول إلى جبهة حرب بينه وبين ما يزيد عن مائتي جندي صهيوني قبل اقتحامهم المنزل واستشهاد «عقل».

وكانت تقول: كنت كثيرًا ما أسمع عن وضع الشباب المطارَدين من قبل جيش الاحتلال، وكيف لا يشعرون بالأمن في بيوت مستضيفيهم؛ فصممت أن أفوز بشرف إيوائهم فاقترحت على ابني الأكبر «نضال» أن نحفر خندقًا خلف المنزل، تحت حظيرة الحمام ليصبح مأوى للشباب المطاردين، وفعلاً لاقت هذه الفكرة ترحيبًا من زوجي وابني فأعددنا الخندق، وعرضا الأمر على شباب المقاومة الذين كان يعرفهم، وبالفعل أكرمنا الله بشرف خدمة المجاهد «عماد عقل».

وتصف مشاعرها في هذا الجو النضالي قائلة: كنت أشعر بقمة السعادة وأنا أشرف على خدمة «عقل»، وأتمنى أن يمكث أكبر قدر

من الوقت في المنزل، ولكن في بعض اللحظات كنت أشعر بالقلق؛ لأن وجوده في المنزل يشكل خطرًا كبيرًا على أبنائي، ففي أي لحظة يمكن أن يتعرض المنزل للاقتحام، وبالتالي ربما أفقد أبنائي الستة، وكنت سرعان ما أهذب نفسي وأنهرها، فإن كان «عقل» حمل روحه على كفه ليقاوم جيش الاحتلال ويصرعهم، ويشكل بؤرة خطر على أعدائه، فنحن كذلك على استعداد أن نضحي بأرواحنا من أجل أن نحميه ونحمي وطننا.

أولادي فداء لفلسطين:

وكثيرًا ما تعرض منزلها للاقتحام من قبل جيش الاحتلال وعماد مختبئ به، حيث كان ينفذ عمليات المقاومة، ثم يعود إليها بملابسه وعليها دماء الجنود، حيث ينجو بنفسه من دوامة الاعتقال في الخندق الذي أعدَّ له بعد أن تهيئ له الطريق، وحول هذا تقول: في يوم عاد عماد من عمليته البطولية في حي الزيتون وقد اتسخ بنطاله بدم أحد الجنود، وما كاد يخلعه لأغسله حتى حاصر جيش الاحتلال المنزل، فخرجت أجري إلى عماد ليهرب من باب المطبخ إلى الخندق الخلفي، وعدت إلى الغرفة لتفقدها فربما نسي سلاحه أو بعض الرصاص، فتدور الشبهات حول المنزل، وفعلاً فقد نسي عماد مع السرعة سلاحه الشخصي على الأرض وبعض الرصاصات، تابعت «أم نضال» بصوت يحن إلى تلك الأيام: ولا أدري كيف نجا

جميع أولادي في ذلك اليوم من موت محقق؟

ليس غريبًا على مثل هذه الأم أن تتمنى أن يرزق الله جميع أولادها الشهادة وحب الاستشهاد ليسيروا على درب «عقل»، فقد كانت تقول للصحفيين والصحفيات الذين جاءوها بعد عملية ابنها محمد الاستشهادية: من يحب الله والوطن لا يتوانى عن تقديم أبنائه فداء له، والأم التي تحب ولدها تطلب له النجاة في الدنيا والآخرة، وتدفعه للجهاد، ولا تجزع عند فوزه بها، ولا تشمت الأعداء بشعبنا بدموعها على شاشات التلفزة.

حقًّا، بأمثال هؤلاء النساء يتربى جيل النضال والمقاومة، ومن بين أيديهن يتخرج الأبطال، ويقترب وقت النصر وعد الله لعباده المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

* * *

الخاتمة

يتضح لنا من المواقف السابقة أن ثبات المؤمنين على الحق وإن نزل بهم من الأشرار والضالين أنواع العذاب والاضطهاد، أو نالهم إيذاء، أو تضييق، أو عصفت بهم المفاجآت والمصائب، فإنما هو دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، وأنهم يختارون تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون ما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة.. •

وإذا كنا اليوم نعيش في أفياء هذه الذكريات المجيدة والمواقف العظيمة، ونتغنى بثمراتها، فمن الوفاء لهم وللأجيال القادمة أن نقدم لهم منا نماذج طيبة إن لم تكن مثلها فلتكن قريبة منها أو شبيهة بها.

ولنتعلم أنه لا ينبغي أن تعصف المفاجآت بعقولنا فتذهلنا عن حسن تقدير الأمور، وإنما علينا أن نبذل الوسع في محاولة التغلب عليها أو التكيف معها، أما أن ننهار أو نتخاذل عن مبادئنا أمامها فلن نجني حينئذ إلا الضعف والهوان مع سيطرة مشاعر الأحزان دون أن يتغير ما حلَّ بنا.

وبهذا تنتصر الدعوات والمبادئ، ويتخلص الحق ويتحرر من سطوة الباطل وسيطرته.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن والحديث:

١- القرآن الكريم.

٢-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، بتحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط ٣، (١٤٠٧-١٩٨٧).

٣- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٤-مسند الحميدي، أبو بكر الحميدي، بتحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، القاهرة، دار الكتب العلمية، د.ت.

٥-مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، بتحقيق:محفوظ الرحمن زين الله، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ط١، ١٤٠٩هـ.

ثانيًا: المعاجم:

٦-معجم تاج العروس، للزبيدي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٧-معجم أساس البلاغة، للزمخشري، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٣م.

٨- معجم البلدان، لياقوت الحموي، بيروت، دار الفكر، د.ت.

ثالثًا: كتب التاريخ:

٩-الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، بتحقيق: علي محمد

البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ.

١٠-الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، بتحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط١، (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

١١- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بتحقيق: شعيب الأرنئوط، ومحمد نعيم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ.

١٢-البداية والنهاية، لابن كثير، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت.

رابعًا: كتب وقصص:

١٣-سلسلة من أعلام الصحابيات، محمد علي قطب، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط ٢(١٤١٨هـ-١٩٩٨م).

١٤-الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، محمود محمد الجوهري، ومحمد عبد الحكيم خيال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط٣ (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١٥-تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٦- شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في القرآن والسنة، د محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٥ (١٤١٨هـ-١٩٩٨م).

١٧- أم نضال.خنساء فلسطينية، موقع إسلام أون لاين.

١٨-أول عملية استشهادية لقسامية، موقع إسلام أون لاين.

١٩-آيات الأخرس عروس بفستان الشهادة. موقع إسلام أون لاين.

٢٠-أيام من حياتي، زينب الغزالي، دار الاعتصام، القاهرة.

٢١- سابع استشهادية:أمومتي دعمت إيماني بقضيتي، موقع إسلام أون لاين.

٢٢-الاستشهادية ريم خدعت الاحتلال، موقع إسلام أون لاين.

٢٣- هاجر أم العرب، عبدو محمد، سوريا - حلب، دار ربيع للنشر.

٢٤- الفدائية عندليب.هنئوا خطابي، موقع إسلام أون لاين.

٢٥-دور المرأة في حمل رسالة الإسلام، تأصيل شرعي، محمد حسين عيسى، دار التوزيع والنشر الإسلامية.د.ت.

* * *

الفهرس

* * *

هذا الكتاب

حين يختار المرء لنفسه أن يعيش لرسالة نبيلة، أو مبدأ سامٍ، وحين يجعل من هذا الاختيار رسالته في الحياة، فإن هذا يتطلب منه إيمان راسخ بهذا المبدأ، وحماسة وافرة له، وتوطين للنفس على مواجهة المخاطر والصعاب، واحتمال للشدائد والمشاق في سبيل هذا المبدأ.

وهذا الكتاب يتناول بعض الشخصيات النسائية اللاتي كرّسن حياتهن لمبادئهن، وبذلن النفس والولد والمال وكل ما يملكن في سبيل نصرة الإسلام والدفاع عن الحق؛ لعلها تكون مصدر إلهام لكل صاحب مبدأ ودعوة صالحة في الثبات على مبدئه ودعوته مهما واجه من عنت ورهق، أو مشاق وابتلاء، أو جراح وآلام في سبيل نصرة مبدئه ونشر دعوته.

